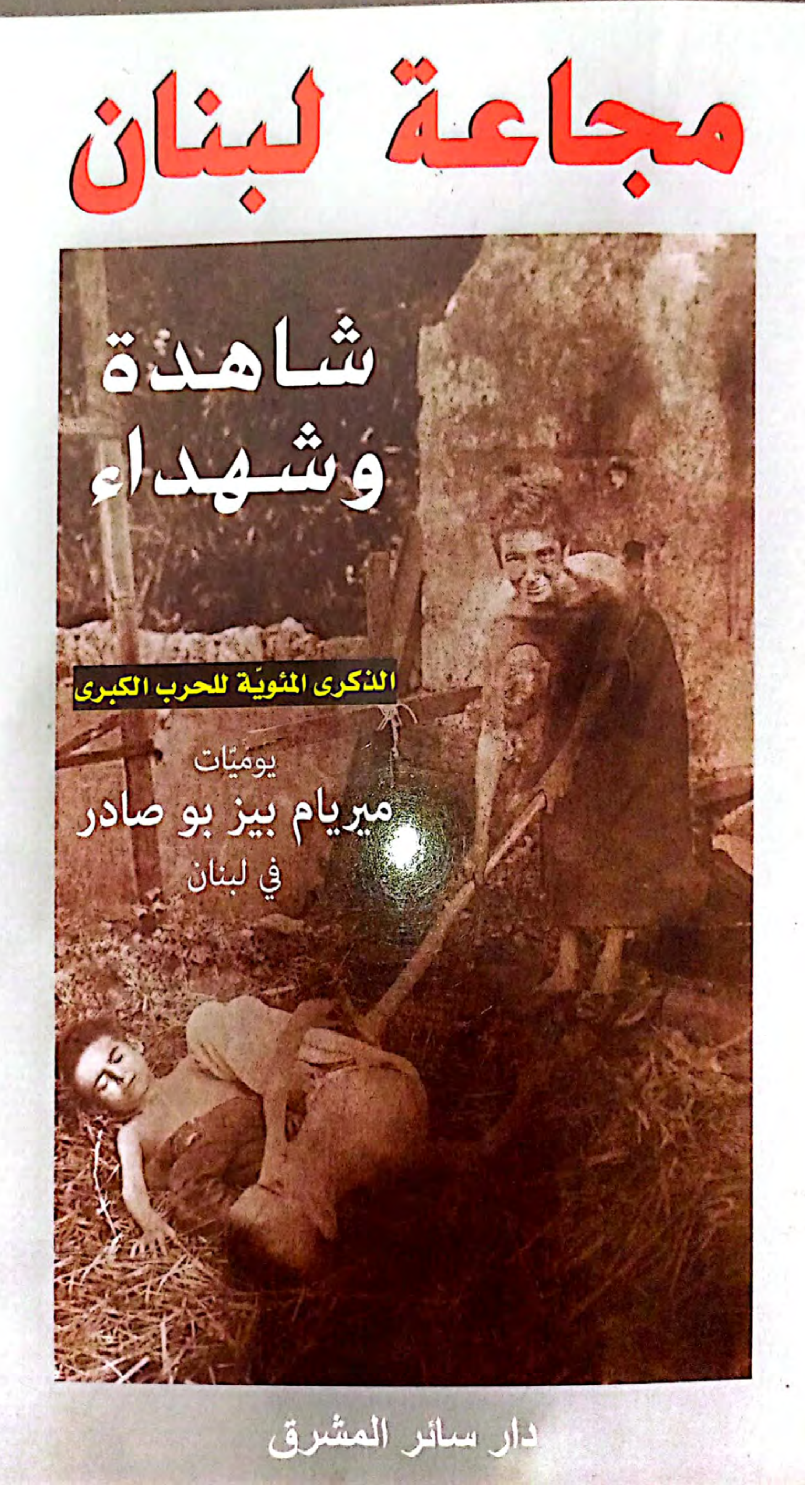


Scanned with CamScanner

الذكرى المئويّة للحرب الكبرى

مجاعة لبنان
شاهدة وشهداء

يوميّات ميريام بيز بو صادر في لبنان

نقله إلى العربية:
جمال دملج



Scanned with CamScanner

دار سائر المشرق © 2016


بالتعاون مع متحف ميم للمعدنيات

صدر بالنص الإنكليزي الأصلي تحت عنوان:
In the Midst of Starvation
Dairies of Miriam Pease Bou Sader in Lebanon

صورة الغلاف من مجموعة إبراهيم نعوم كنعان الخاصة،
جميع الحقوق محفوظة.

© دار سـائر المشـرق
الطبعة الأولى 2016

جديدة المتن - نهر الموت
سنتر بايلايان - الطابق السابع
هاتف وفاكس: 01/900624
info@entire-east.com
www. entire-east.com

تصميم وتنفيذ: جوني كارليتش

ISBN 978-614-451-031-5

Scanned with CamScanner

شكر وتقدير

أودّ أن أهدي هذا الكتاب إلى ميريام، الياس، لولو، وديع، هيلين، ألبرت، هاري، جاك، وغلاديس، فضلًا عن أجدادنا، وإخواني وأخواتي وأبناء العمومة وأبنائهم وبناتهم، وأعضاء الكنيسة البروتستانتيّة (كويكرز). كما أودّ التعبير عن تقديري العميق لأولئك الذين يحترمون حرّيّة الفكر والتعبير.

إنّ نشر هذه اليوميّات يستدعي شكر و تقدير البعض:

بداية أشكر عائلة ميريام بو صادر التي احتفظتْ بنسخة اليوميّات الأصليّة على مدى سنوات طويلة من الزمان، كما أشكر ألبرت بو صادر الذي اعتنى بها، وكذلك شقيقته جوليا التي اهتمّت بشكل كبير في قراءتها، وما زالت بفضلهما هذه المخطوطات موجودة حتّى اليوم. وأودّ أيضًا أن أشكر أخي أمين وزوجته فاليري، اللذين عملا على نسخ هذا الكتاب، الأمر الذي ساعد في نشره.

الكلمات لا تعبّر عن مدى امتناني لروبرتو خطلب وابن أخي فرناندو قاري، لتفانيهما من أجل نشر هذا الكتاب في لبنان. وشكر خاصّ لدار سائر المشرق في لبنان. وأشكر السيد رامز لبكي لتعاونه، والدكتور خاطر أبي حبيب على المقدّمة. كما أشكر أيضًا ثانويّة برمانا، وكلّ من شجّعني على نشر هذا الكتاب.

وأشكر الربّ على تحرير هذا الكتاب.

ويلما قاري

Scanned with CamScanner

تمهيد

هذا الكتاب هو قصّة امرأة إنجليزيّة كتبت مذكّراتها في لبنان قبل المجاعة الكبرى في الحرب العالميّة الأولى وأثناءها، وتعمّقت في سرد تفاصيل الأنشطة اليوميّة والأسريّة والعلاقات في المجتمع، فإذا بها تقدّم وصفًا دقيقًا لما بذله اللبنانيّون من جهود جبّارة للبقاء على قيد الحياة، في مواجهة المجاعة والأوبئة والأمراض التي فتكت بهم، في فترة من الزمن لم تلقَ إلّا الاهتمام القليل.

وُلدت ميريام بيز في شيفيلد، وانتقلت مع والديها وإخوتها وأخواتها إلى نيوزلندا عندما كانت في السنة الثالثة من عمرها عام 1865، قبل أن تكبر وتعمل لاحقًا عند حلوانيّ في ضاحية «كرايست تشيرش».

كان السيّد بو صادر وقتذاك في الخامسة و العشرين من عمره.. رجل قصير القامة، أنيق المظهر، ذو شعر أسود مجعّد، ويتكلّم الإنجليزيّة الركيكة. ولدى مرور عام على تعارفهما، أقدما على الزواج، ورُزقا بثلاثة أطفال، قبل أن يشعر بالمرض، الأمر الذي أجبره على العودة مع عائلته إلى مسقط رأسه في قرية الشوير التي تقع في منطقة المتن في جبل لبنان، أي ضمن المنطقة الجغرافيّة التي كانت تُسمّى في ذلك الحين: سوريا.

لم تكن التواريخ في بعض الأحيان واضحة في السرد اليوميّ لمذكّرات ميريام، ولكن من الواضح أنّ أوّل عيد ميلاد احتفلتْ به في الشوير كان عام 1914، أي مع اندلاع الحرب العالميّة الأولى. وقد حاولت المؤلّفة تدوين مذكّراتها اليوميّة قدر المستطاع، حيث ركّزت على وصف كيفيّة تعاطي الناس مع

Scanned with CamScanner

المجاعة وتعايشهم مع الأوبئة الناتجة عنها، مثل التيفوئيد الذي انتشر بين سكّان المنطقة الضعفاء، وكيف توالت سلسلة العواقب الوخيمة على كافّة فئات المجتمع في جبل لبنان في القرن العشرين. كما تروي المؤلّفة علاقتها بعائلة زوجها في الشوير، وتتحدّث أيضًا عن مجتمع الأصدقاء البروتستانت (الكويكرز البريطانيّ) الذين كانوا يديرون مستشفى ومدرسة في قرية برمانا، ومعطيات كثيرة تعكس خلفية شحّ الغذاء وتفاقم المرض.

ومن المفيد في قراءة مذكّرات ميريام، ما أخذته بالحسبان من خلفيّة تاريخيّة عامّة للأحداث، حيث دخلت تركيا العثمانيّة الحرب إلى جانب دول المحور في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1914. ففي ذلك الوقت، كان جبل لبنان قد تحوّل على مرّ العصور إلى مدرّجات كثيرة مزروعة بأشجار التوت المخصّصة لتغذية دودة القزّ وإنتاج الحرير الخام، وكان في معظم القرى مصنع واحد على الأقلّ (كِرخانة) لاستخلاص بالات الحرير من شرانق الحرير، ومن ثمّ تصديره إلى أوروبا، وتحديدًا إلى ليون في فرنسا.

لقد كان الحرير بمثابة المحصول الأوّل الذي يوفّر النقد في لبنان، ويليه القمح كسلعة رئيسيّة درجت العادة على أن تُستورَد من منطقة البحر الأسود، وكذلك من منطقة حوران المعروفة الآن في شمال سوريا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه عند نشوب الحرب العالميّة الثانية، كان اللبنانيّون قد هرعوا للقيام بتحضيرات فوريّة من أجل توفير وجمع وتخزين الغذاء لمدّة طويلة. وفي قريتي، روى لي كبار السنّ كيف بُذلت الجهود الفرديّة والجماعيّة من أجل تخزين حبوب القمح، ولدرجة أنّ أصغر قطعة أرض كانت تُحرث وتُزرع بحبوب القمح.

ويُذكر أيضًا أنّه عندما بدأت الحرب الكبرى، كان لبنان يخضع لحكم الأتراك، فقام جمال باشا بفرض حصار على مناطق الجبل اللبنانيّ، فيما كانت أساطيل الحلفاء، وبخاصّة الأسطولين الإنجليزيّ والفرنسيّ، تحاصر سواحل الإمبراطوريّة العثمانيّة، بما فيها الساحل اللبنانيّ. وقد تمركزت قوّات الجيش والحاميات

Scanned with CamScanner

التركيّة أيضًا في جبل لبنان، وازداد العبء ثقلًا مع اتّخاذ قرار مصادرة الماشية والمواد الغذائيّة. وكان الأتراك حادّي الطباع في معاملتهم لسكّان جبل لبنان، وذلك بسبب تعاطف غالبيّة اللبنانيّين مع الحلفاء، وخاصّة فرنسا التي ساعدت الموارنة في الحصول على الحكم الذاتيّ في القرن الغابر، علمًا أنّ هذا الحكم كان قد أُلغيَ إثر دخول تركيا الحرب.

مع فقدان أسواق تصدير الحرير، وحينما صارت الحبوب واللحوم نادرة وباهظة الثمن في الداخل، فضلًا عن انقطاع التحويلات الماليّة من قبل المغتربين اللبنانيّين إلى ذويهم، أصبح الغذاء شحيحًا جدًّا. وقد تفاقم الوضع بعد غزو موجات من الجراد للمناطق الريفيّة عامَيْ 1916-1917.

رافق هذا الوضع مجاعة شديدة، وتفشّي العديد من الأمراض على نطاق واسع، ومنها ما عُرف بحمّى التيفوس. وبنهاية الحرب ووصول الإغاثة، وصلت نسبة ضحايا الأمراض والمجاعة إلى 35 %، علمًا أنّ البعض يقول إنّ النسبة تجاوزت الـ 40%. وقد توفّيت الكاتبة نفسها جرّاء إصابتها بالحمّى، وذلك في الوقت الذي وصلت فيه قوّات الحلفاء من أجل إحلال السلام وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لقد أثار عنفوان ميريام وحسّها المرهف اهتمام الكثير من الأشخاص. فالمدرسة التي ذكرتْها في يوميّاتها بقيت مؤسّسة تعليميّة أساسيّة في برمانا والمنطقة المحيطة بها. وأنا شخصيًّا درستُ على مقاعدها في الخمسينيّات والستّينيّات من القرن الماضي، وما زلنا كمتخرجين نساهم في دعم مساهماتها تجاه مجتمعنا.

لقد غطّت الكاتبة المجاعة بكلّ تفاصيلها اليوميّة من حيث تأثيرها داخل الأسرة وما عكسته من مشاهدات تتعلّق بمجتمع الشوير. واللافت أنّه لم تكن هناك أيّ نبرة شكوى أو شفقة على الذات، بل تقدير عظيم لأقلّ عمل مساعدة، أكانت من داخل القرية أو من خلال التواصل مع جماعة الكويكرز في برمانا. وتَحفل اليوميّات بالشُكر لله ويسوع على النعمة حتّى ولو كانت

Scanned with CamScanner

نصف رغيف خبز يُقسّم على خمسة أو ستّة من أفراد الأسرة، الأمر الذي يتجلّى في قيام ميريام خلال الحرب بممارسة «قهر الذات»، والإشادة بأيّ مبادرة لطيفة من قبل الآخرين باعتبارها دليل على الخير الفطريّ للبشريّة.

اشتملت مذكّرات ميريام أيضًا على سرد مفصّل لنشاطاتها اليوميّة في إطار الأسرة والمجتمع، حيث قدّمت توضيحات تشرح طبيعة العلاقات التي كانت قائمة طوال فترة المجاعة ما بين السكّان المحلّيّين وبين سائر السلطات المحلّيّة والوطنيّة. كما سلّطت ميريام الضوء بشكل متزايد على برمانا والكويكرز، وكيف أثّرت المجاعة والمرض بها وبزوجها وأطفالها بشكل خاصّ. وبغضّ النظر عن التقارب الثقافيّ الذي تراه الكاتبة تجاه نظرائها من متحدّثي اللغة الإنجليزيّة في المجتمع الذين كانوا يديرون المدرسة، فقد شعرت أيضًا بالعطف والاهتمام بطفلها المريض وبنفسها داخل المجتمع اللبنانيّ والأجنبيّ على حدٍّ سواء، علمًا أنّها لم تلقَ ذات الاهتمام وبنفس الدرجة من قبل عائلة زوجها المتأصّلة جذورها في الشوير.

وفي هذه الظروف، صارت ميريام في وقت مبكّر من الحرب عضوًا فاعلًا بين أعضاء الجماعة البروتستانتيّة (جماعة الأصدقاء، كويكرز)، وهو عمل لا ينطوي على ممارسة أيّ طقوس باستثناء عمليّات المساعدة ومدّ يد العون للمحتاجين. وخلال السنوات الأخيرة من الحرب، انتقلت الكاتبة إلى برمانا مع الأطفال الأصغر سنًّا، وكانت تعمل مع الكويكرز في مجالات الإغاثة من المجاعة، وتُكافأ على عملها بأجر زهيد من الموارد المحدودة المتاحة لتسدّ حاجة أبنائها الصغار.

لقد كانت ملاحظاتها حول هذه الفترة في برمانا مثيرة جدًّا للاهتمام، وتتضمّن وصفًا للرحلات التي كانت تقوم بها سيرًا على الأقدام إلى الجبال مصطحبة بعض الأطفال الصغار إلى الشوير، إضافة إلى رحلاتها الطويلة في بعض الأحيان إلى بيروت التي كانت تبدأ عند الفجر مع البالغين سيرًا على الأقدام أيضًا.

Scanned with CamScanner

اعتبارًا من نهاية عام 1917 وحتّى وصول القوّات البريطانيّة والحلفاء في أبريل 1918، حرصتْ ميريام على تدوين الشائعات التي كانت تتردّد عن اقتراب موعد وصول المساعدات والإمـدادات، فوصفتْ لهفتها على مراقبة حركة السفن المبحرة في عرض البحر من موقعها في الجبل الذي يعلو أكثر من 800 متر عن مستوى سطح البحر، وذلك لأنّ العمل في مجال الإغاثة لم يكن يتمّ انطلاقًا من الشعور بالرغبة في انتصار أيّ جانب معيّن في الحرب، بل إنّه كان تعبيرًا إنسانيًّا يستهدف السعي من أجل استمراريّة بقاء العائلة والأصدقاء والسكّان المنكوبين في المناطق المحيطة بشكل عامّ.

علاوة على ذلك، نوّهت ميريام في مذكّراتها بنقطة معيّنة وهي ملاحظة بقاء عدد قليل من أعضاء الكويكرز الأجنبيّ في برمانا، وكانوا من البريطانيّين المدرجين بشكل تلقائيّ كرعايا دولة دخلت في حالة عداء مع الأتراك. ومع ذلك، فلم يرد في روايتها أيّ ذكر لإجلاء أو طرد أيّ منهم، أو فرض أيّ قيود ملحوظة من قبل السلطات العثمانيّة التركية عليهم.

لا يسع المرء إلّا أن يشعر بعمق قدْر هذه الرواية كشاهد على قوّة امرأة شجاعة، سيّما وأنّها تذكّرني بذكريات خاصّة من مرحلة طفولتي منذ أكثر من 50 عامًا، وكنت حينها صبيًّا صغيرًا أتناول الغداء مع صديقي في قريتنا التي تبعد تقريبًا نصف ميل عن ثانويّة برمانا التي كانت مسرحًا للعديد من الأحداث اليوميّة. أذكر يومها أنّني تركت القليل من الطعام في طبقي الذي أعدّته جدّة صديقي، فدَنَت يومها الجدّة منّي وقالت: «يجب ألّا تترك الطعام في طبقك كي لا يقلّدك ابني.. إنّ ترك الطعام في الأطباق خطيئة، فقد يكون هناك شخص في مكان ما في هذا العالم لا يجد شيئًا يأكله». ثمّ بدأتْ تصف لنا أحداث المجاعة في قريتنا إبان الحرب العالميّة الأولى، وقد كانت عائلتها آنذاك ملتزمة بعقد عمل لتوفير الدقيق وصناعة الخبز.

قالت السيّدة العجوز: «كان هناك ثلاثة أولاد تلقّب عائلتهم بالرامح، بسبب طولهم وأناقتهم. وقد أتوا مرّة وطلبوا منّي بعض الطعام. ولكن نظرًا

Scanned with CamScanner

لأنني كنت قد أعطيتُ بعض الطعام لمحتاجين آخرين في ذلك النهار، فقد طلبتُ منهم أن يأتوا في اليوم التالي، فغادروا منزلنا مع والدهم، ليراهم البعض لاحقًا وهم يأكلون بقايا أجزاء من حمار نافق، ما أدّى إلى إصابتهم بالتسمّم، ثمّ وفاتهم هم الأربعة في مساء اليوم التالي.»

لقد روت السيّدة العجوز هذه القصّة بينما كانت دموعها تنهمر على وجهها وتبلّل ثوبها الأسود وتسيل على الأرض. ومنذ ذلك الحين وحتّى يومنا هذا، أجد أنّه من الصعب عليّ أن أترك بقايا الطعام في صحني لأنّ ذلك المشهد سرعان ما يعود إلى ذهني مباشرة. وعندما كبرتُ، لاحظتُ أنّ تلك السيّدة العجوز التي هي ألطف وأرقّ كائن عرفتُه، ظلّت ترتدي دائمًا الأسود لشعورها بالحزن والذنب، لأنّها طلبت من أولئك الأولاد الحضور في اليوم التالي.

أمّا ما تبيّن لي من خلال تجربتي، بخلاف موقف جدّة صديقي، فهو أنّ الغالبية العظمى من جيل الناجين من المجاعة والطاعون في الحرب العالميّة الأولى، تَجَنَّبَت الحديث عما عاشته عمومًا. وعندما كانوا يضطرّون إلى الإشارة للحرب، فقد كانوا يستخدمون مصطلحات مراوغة للتورية، الأمر الذي يتجلّى بوضوح أيضًا في كتب التاريخ المحليّ وفي الإنتاج الأدبيّ لسكان جبل لبنان، كما لو كان هناك إجماع خفيّ لطمسه أو حذفه من الوعي الجماعيّ.

إنّ ما خطّته ميريام بيز هو وثيقة هامّة وحسّاسة للغاية تحدّثت فيها عن فترة حرجة أهملها تاريخ لبنان. ولكن الآن، ومع نشر كتابها بعد قرن من اندلاع الحرب العالميّة الأولى، فإنّها ستشكّل حدثًا هامًّا طال انتظاره لإحياء البحوث الاجتماعيّة والتاريخيّة عن تلك الفترة.

الدكتور خاطر أبو حبيب

Scanned with CamScanner

المقدّمة

هذه اليوميّات مكتوبة باللغة الإنجليزيّة على دفاتر مدرسيّة وأوراق تغليف مبعثرة، حيث خُطّت لأوّل مرّة عام 1909 في نيوزيلندا، بقلم ميريام بيز، المواطنة الإنجليزيّة التي تزوّجت الياس بو صادر، وهو مواطن لبنانيّ كان يعيش في نيوزيلندا.

لقد أصبحت هذه اليوميّات في الوقت الحاضر في متناول أيدينا، فشكرًا لحفيدة ميريام ويلما قاري التي وُلدت في البرازيل، وهي صحافيّة وكاتبة وضعتْ على رأس قائمة اهتماماتها معرفة أصولها، فضلًا عن معرفة التاريخ الشفهيّ والكتابيّ من أجدادها.

وُلد الياس بو صادر عام 1854 في قرية الشوير في جبل لبنان، وفي عام 1895 هاجر إلى نيوزيلندا، واستقرّ في منطقة «ولستون» الصناعية في مدينة «كرايست تشيرش» على الساحل الشرقيّ للجزيرة الجنوبيّة. بدأ الياس العمل في التجارة العامّة، ومن ثمّ افتتح مخبزًا بالشراكة مع صديقه الإنجليزيّ جاك بيز الذي كان قد هاجر هو أيضًا إلى نيوزيلندا. وهناك التقى الياس مع ميريام بيز شقيقة جاك، وهي فتاة شابّة ولدت في أوكسفورد في إنجلترا عام 1862. وعُرفت أمّهم باسم هاربيت سميث، كما عُرف والدهم باسم جون بيز، وكان يعمل في مجال الطباعة الملكيّة لقصر باكنغهام في عهد الملكة فيكتوريا. وفي عام 1870، هاجر جون وأسرته إلى نيوزيلندا، حيث افتتح محلًا لبيع الأحذية في «كرايست تشيرش».

وقع الياس وميريام في الحبّ، وفي عام 1889 تزوّجا، وتكلّل الزواج بولادة

Scanned with CamScanner

خمسة أطفال في نيوزيلندا: جاك وفؤاد (الذي توفّي في مرحلة الطفولة)، وبيرل (لولو) وغلاديس وهاري. وفي عام 1909، عانى الياس من المرض، فقرّر العودة مع أسرته إلى الديار.

هنا بدأت رحلة ميريام الطويلة إلى لبنان، بلد الهجرة الجديد. فقد عبرت بهم السفينة أوّلًا في أوستراليا، حيث التقى الياس بأصدقاء لبنانيّين، قبل أن تواصل إبحارها نحو سيلان (سيريلانكا)، واليمن، ومصر (قناة السويس وبور سعيد)، ثمّ فلسطين، وأخيرًا إلى لبنان.

نزلت العائلة في فندق بيل فيو (الإطلالة الجميلة) في منطقة الزيتونة. وبدأت ميريام وعائلتها تتكيّف بشكل سريع في البلد على الرغم من عدم إلمامها باللغة والعادات المحلّيّة، ثمّ انتقلوا إلى الشوير، مسقط رأس الياس، حيث رُزق الزوجان بطفلين جديدين، هيلين وألبرت. وليس بعيدًا من الشوير، التقت ميريام بعضو الكويكرز البريطانيّ الذي يدير مدرسة أنشأها «تيوفيليوس والدماير» المبشّر الكويكرز السويسريّ. ثمّ انتقلت الأسرة إلى برمانا، حيث أصبح من السهل التحاق الأطفال بالمدرسة الثانويّة هناك.

عام 1914، بدأت الحرب العالميّة الأولى، وأصبح الوضع كارثيًا في لبنان مع انتشار التيفوئيد واجتياح الجراد للبلد مدمّرًا العديد من المحاصيل الزراعيّة، وعمّت المجاعة، ولقي آلاف الأشخاص حتفهم، خصوصًا في المناطق المسيحيّة في برمانا وجبيل والبترون وجزين. وخلال تلك السنوات، قضت ميريام والياس وأطفالهما وقتًا مزعبًا، إلّا أنّ ميريام عملت في تلك الأثناء في دار الأيتام، وأعطت كلّ ما لديها من حبّ الأمومة المستمدّ أصلًا من محبّة الله.

بعد انتهاء الحرب، التحقت بيرل (لولو) بمدرسة التمريض في بيروت، وسافرت غلاديس إلى فرنسا مع عائلة فرنسيّة، في حين وجد الياس وابنه جاك عملًا في بيروت. وتوفّيت ميريام عام 1918 بسبب الحمّى الإسبانيّة التي أصيبت بها، وبعد عشر سنوات وافت الياس المنيّة في بيروت.

Scanned with CamScanner

هجرة جديدة إلى البرازيل

بيرل المعروفة بالاسم العربيّ لولو، والتي ولدت في نيوزلندا عام 1902، تخرّجت كممرّضة وعملت في مستشفى برمانا عام 1924، حيث التقت هناك بوديع قاري، من مواليد وادي سهل البقاع عام 1897. وديع قاري هو نجل أمين وزيرا (زهرة؟) (Zaira) قاري طراد، وهي عائلة هاجرت إلى البرازيل في أواخر القرن التاسع عشر، وعاشت في فورتا ليزا في ولاية سيارا.

انتقلت بيرل مع وديع فور زواجهما إلى البرازيل، من فورتا ليزا إلى ساو باولو، لتلتحق بعائلة وديع هناك، حيث رُزقت بسبعة أطفال هم: جانيت وأمين وروبرتو وإيفون وويلما وسمير ونايف. وقد أكملوا جميعًا دراساتهم في مجالات الهندسة المدنيّة والهندسة الالكترونيّة والمحاسبة والقانون والصحافة.

توفّي وديع عام 1948 في البرازيل، وبقيت بيرل طيلة حياتها في المهجر، باستثناء عام 1968 الذي أمضته في لبنان، قبل أن تعود مجدّدًا إلى البرازيل. وقد توفّيت عام 1990 عن عمرٍ يناهز 88 عامًا.

اختارت ويلما، وهي إحدى الحفيدات المولودة عام 1937، قسم المراسلات وحصلت على شهادة البكالوريوس في الصحافة في ساو باولو عام 1966. وقد عملت في العديد من الصحف والمجلّات في البرازيل، وعاشت خلال عام 1970 فترة صعبة، وهي الفترة التي تبعت الحملة الديكتاتوريّة العسكريّة. وعملت ويلما أيضًا كعضو هيئة تدريس في جامعة باوليستا (UNIP) عام 1985 في ساو باولو، و عُرفت كرئيس تحرير لمجلة «مالتينسينو».

لقد سافرت مخطوطات مذكّرات ميريام بو صادر وعبرت المحيطات والبحار والجبال، من نيوزيلندا إلى البرازيل ثمّ إلى لبنان مع ابنها ألبرتو حارس ذكريات والدته. فهو وإخوته وأخواته وحدهم كانوا يعرفون محتوى مذكّرات أمّهم التي بقيت طيّ الكتمان. فحتّى عائلتها لم تتحدّث عن مذكّراتها لما تحمله صفحاتها من ألم شعرت به هي وعائلتها خلال الحرب العالميّة الأولى في لبنان من جوع ومرض وفقر مرّ بهم.

Scanned with CamScanner

تساءل ألبرتو بعدما أصبح كبيراً في السنّ وشبه أعمى: ماذا أفعل بالمخطوطات (مذكّرات والدتي)؟.. ثمّ فكّر بحرقها. وعندما علمت ويلما بهذا، طلبت من عمّها أمين قاري المساعدة لكي يتحدّث مع عمّها ألبرتو بشأن المذكّرات ويحاول إقناعه بأن يعطيها المخطوطات لأنّها ترغب بالاحتفاظ بمذكّرات جدّتها. وبعد عدّة حوارات بين أمين وألبرتو، قرّر الأخير مكالمة ويلما لإعطائها النسخة الأصليّة، ففرحتْ ويلما كثيراً عندما علمت بذلك لأنّها ستتطلع على مذكّرات جدّتها.. ولكن لسوء الحظ كانت المذكّرات مكتوبة باللغة الإنجليزيّة.

طلبت ويلما من أحد المترجمين ترجمة المذكّرات إلى البرتغاليّة، ثمّ بدأت تكتشف القصّة الحقيقيّة الحزينة لميريام، وكيف جمعت هذه القصّة بين الثقة والرجاء والمحبّة والإحسان والحساسيّة والمشاركة.. فتلك الصفحات أظهرت حقيقة ميريام وديانتها المسيحيّة وما تعلّمته من الكويكرز. وقد شعرتْ ويلما بأنّه يجب على أفراد الأسرة جميعهم معرفة قصّة ميريام، وأن تكون أيضًا في متناول الآخرين. وعلى هذا الأساس، قرّرت نشر النسخة المترجمة، وأصدرت الكتاب عام 2008 (منشورات سول - ساو باولو).

عام 2012، زارت ويلما لبنان لأوّل مرّة. وقد سمّت زيارتها «الحجّ إلى أرض الأجداد» حيث سكنت جدّتها الإنجليزيّة وأمضت جزءًا كبيرًا من حياتها. وخلال تلك الزيارة، قابلتُ ويلما في بيروت، وكانت مليئة بالعواطف الجيّاشة لأنّها موجودة في لبنان. لقد كانت قد خطّطت كثيرًا من قبل لزيارة لبنان، ولكنّها لم تستطع إمّا لأسباب شخصيّة أو بسبب الصراعات الدائمة في المنطقة، ولكنّها استطاعت في نهاية المطاف الحضور إلى لبنان، لتمشي على خطى أجدادها.

الطريق بدأ من بيروت إلى الشوير وبرمانا. وزارت ويلما أيضًا العديد من الأماكن في لبنان مثل زحلة وقرية والدها الأصليّة. لقد أخبرتْني ويلما بقصّة جدّتها، وقدّمتْ لي الكتاب الذي نشرَته بالبرتغاليّة ونسخة عن مخطوطة المذكّرات بالإنجليزيّة، وقالت لي إنّ حلمها هو نشر نسخة أخرى باللغة

Scanned with CamScanner

الإنجليزيّة في لبنان، ثمّ عادت فيما بعد إلى البرازيل. وعلى الفور قرأتُ الكتاب الذي يحمل قصّة حقيقيّة مؤثّرة لامرأة عاشت الحرب العالميّة الأولى وواجهت الألم بشجاعة وأمل. وبدأتُ بشوق البحث في قصّة ميريام في لبنان، واستعنتُ بصديقي اللبنانيّ البرازيليّ رامز لبكي، وهو من قرية بعبدات التي تقع بين الشوير وبرمانا. وقد قمنا بزيارة مدرسة برمانا التي كانت موجودة في عصر ميريام، والتي أنشأتْها جمعيّة الأصدقاء الدينيّة (الكويكرز). وزرنا أيضًا قرى المنطقة ومقبرة صغيرة هناك (مدافن الأصدقاء الكويكرز)، وكان ضريح ميريام موجودًا هناك وقد كُتب عليه اسمها وتاريخ وفاتها: 1918. اهتمّ صديقي السيّد أنطوان سعد بالقصّة وبما قمتُ به من أبحاث. والسيّد أنطوان سعد هو مدير دار سائر المشرق للنشر في بيروت.

هناك مخطوطة أخرى تروي قصّة المهاجر اللبنانيّ شبل الخوري الذي عاش في بيروت والبرازيل وكتب المخطوطة عام 1914 في لبنان. وبعد مئة عام، أي عام 2014، نُشرت المخطوطات، وكان عنوان الكتاب: «سرّ المئة عام»، وتُرجم من العربيّة إلى الإنجليزيّة.

قرأ أنطوان سعد مخطوطة مذكّرات ميريام انطلاقًا من أهميّتها كقصّة حقيقيّة تشهد على البؤس البشريّ في لبنان. وقد تشابهت القصّتين كثيراً، وخصوصًا من جهة وصف الأوقات العصيبة التي مرّت أثناء الحرب العالميّة الأولى.

وسرعان ما قرّر أنطوان سعد أن ينشر المخطوطتين، فشعرتُ ويلما حينها بسعادة غامرة، وهي الحارس على النسخة الأصليّة. وها نحن نتعرّف الآن على القصّة الحقيقية لميريام والمجتمع اللبنانيّ من وجهة نظر امرأة إنجليزيّة عاشت في لبنان مع عائلتها اللبنانيّة.

إنّ ميريام بو صادر بطلة حقيقيّة مجهولة، وهي تمامًا مثل الآخرين الذين قُدّر لهم البقاء على قيد الحياة لكي يساعدوا الناس في أتعس اللحظات التي مرّ بها لبنان والبشريّة.

Scanned with CamScanner

إنّ مخطوطة ميريام لا تتضمّن وصف حجم المعاناة وحسب، بل إنّها تُعتبر أيضًا شهادة شاهدة على الثقة والأمل والمقاومة في مواجهة صعوبات الحياة بمعونة الربّ. والآن في وقتنا الحاضر، تنتشر ذريّة ميريام في كلّ مكان.. في البرازيل ولبنان ونيوزيلندا...إلخ. وهذا الكتاب هو ذاكرة لا تنضب يُمثّل الولاء لميريام بو صادر البطلة التي قدّمتها لنا حفيدتها ويلما قاري.

الشوير لبنان 2014

روبرتو خطلب

مدير الدراسات الأميركيّة اللاتينيّة والمركز الثقافيّ

جامعة الروح القدس في الكسليك - لبنان

Scanned with CamScanner

الذكرى المئويّة للحرب الكبرى

مجاعة لبنان

شاهدة وشهداء

يوميّات ميريام بيز بو صادر في لبنان

Scanned with CamScanner

الفصل الأوّل

تاريخ عائلتنا

أنا ميريام بو صادر المولودة في إنجلترا في السادس من حزيران (يونيو) عام 1862. والدي يدعى جون بيز وهو من باكينغهام، ووالدتي تدعى هارييت سميث وهي من أوكسفورد. كان والدي قرطاسيًا هناك، وخدم لاحقًا في صفوف حرس القصر الملكيّ خلال عهد الملكة فيكتوريا. كنتُ وقتذاك في الثالثة من عمري. وقد غادرنا إنجلترا على متن سفينة إلى نيوزيلندا. وبعد مواجهة الكثير من الرياح داخل قمرتنا الصغيرة في هذه الرحلة التي استغرقت ثلاثة أشهر، وصلنا في النهاية سالمين. ذهبنا إلى الحجر الصحيّ في جزيرة «ريب» لمدّة ثلاثة أشهر، وقد أُصبنا بالحمّى القرمزيّة هناك. كنّا ستّة على متن الرحلة: أبي وأمّي، وأنا وشقيقتي الأكبر أليس وشقيقاي هاري وجورج.

لقد أمضينا القسم الأوّل من حياتنا في «شيفيلد»، حيث عشنا بسعادة هناك لمدّة أربعة عشر عامًا، وكنّا نذهب إلى مدرسة في القرية تدعى «ويدينغتون»، وكانت تقع على بعد أربعين ميلًا عن «بورت ليتليتون» في مدينة «كرايست تشريش»، وعلى بعد خمسة عشر ميلًا من جبال «تيوليس»، وهي إحدى أعلى الجبال في نيوزيلندا. مكثنا هناك إلى أن أصبحتُ في العشرين من عمري. ففي ذلك الحين، ذهبتُ برفقة شقيقتي

Scanned with CamScanner

أليس للعيش في «كرايست تشيرش». وبعد ذلك بنحو عامين، أقنعنا بقية العائلة بالانضمام إلينا، فقاموا ببيع المنزل ميمّمين صوب «وولستون». وقد افتتح والدي هناك متجرًا لصنع الأحذية، بينما افتتحتُ بدوري مشغلًا للخياطة، وبقينا على هذه الحال إلى أن أصبحتُ في الخامسة والعشرين من عمري.. وكان لديّ متجرًا للألعاب أيضًا.

ذهبتُ في إحدى المرّات إلى منزل صديقة لي لكي أخيّط لها ثوبًا، وعلمتُ هناك أنّ أحد الحلوانيّين يطلب فتاة للعمل في محلّه. وقد ذهبتُ لمقابلته مع فتاة تدعى كاتي لمعرفة ما إذا كان يرغب في توظيف إحدانا، وكذلك لرؤية الأشياء الجميلة في محلّه. رأينا رجلًا قصير القامة، أسمرَ البشرة وذو شعر مجعّد أسود، ولم يكن في وسعه تحدّث الإنجليزيّة بطلاقة. سألناه عمّا إذا كان يرغب في توظيف فتاة، فأجابنا بأنّ لديه واحدة الآن وبأنّه سوف يخبرنا إذا ما احتاج إلى ذلك. وبعد أسبوعين، أرسل لي طالبًا مقابلتي، فقلتُ له إنّني لا أرغب في العمل لمدّة أسبوع واحد أو أسبوعين، وإنّما لفترة طويلة.

هكذا كانت بداية رحلتنا، وهذا ما سوف أكتبه يا أصدقائي في الحياة.. وفي المتاعب.

الكاتبة ميريام بو صادر وأولادها

تزوّجنا بعد عام من ذلك. ورزقنا فيما بعد بمولودنا الأوّل وسمّيناه جاك، ثمّ رزقنا بمولودة سمّيناها بيرل، ومن ثمّ بمولودتنا الثانية وسمّيناها غلاديس.

بعد سنوات عدة من الإقامة في نيوزيلندا، بدأنا رحلتنا إلى سوريا نظرًا لأنّ زوجي العزيز أصيب بمرض قبل عشرة أعوام، وكان ينبغي علينا أن نحضره إلى مسقط رأسه، حسبما أمرتنا السلطات. وهنا بدأت رحلتنا.

Scanned with CamScanner

الرحلة إلى سوريا خلال شهرين

غادرنا أوكلاند في العاشر من أيّار (مايو) عام 1909، وكنّا نشعر بالأسى على فراق هذه البلاد العزيزة والجميلة، وجميع الأصدقاء الأعزّاء الذين كانوا في غاية اللطف معنا في كافّة الأوقات.

السيّدة روبرتس، معلّمتنا في مدرسة الأحد، نزلت إلى الميناء من أجل رؤية الأولاد، وأعطتهم نسخًا من الإنجيل وعدّة كتب أخرى لمطالعتها خلال الرحلة. لقد أمضينا وقتًا جميلًا في سيدني، ولكنّ البنات وجاك والياس لم يكونوا على أحسن ما يرام، أمّا أنا فقد كنت مع الطفل في غاية السعادة، وأمضينا أوقاتًا ممتعة بالفعل.

كان هناك العديد من المسافرين الطيّبين على متن الرحلة، كما أنّ أفراد طاقم السفينة شعروا بالسعادة لرؤيتنا. ولكنّ حال الياس الصحّيّة تدهورت بشكل كبير، فشعرتُ بقلق بالغ عليه، ثمّ شكرتُ الربّ لأنّنا وصلنا إلى سيدني، حيث أنّه راح يشعر بالتحسّن.

لا شكّ أنّ سيدني مدينة جميلة جدًّا، ولكنّنا لم نشاهد الكثير من معالمها نظرًا لأنّنا وصلنا عند الساعة الثالثة والنصف، وغادرنا عند الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي. وقد التقينا مع السيّد دان الذي كان رجلًا لطيفًا جدًّا وقدّم لنا مساعدة جمّة نظرًا لأنّه كان لدينا الكثير من الأغراض للشحن. وبعد ذلك غادرنا على متن سفينة ألمانيّة تدعى «سيديليتز»، وكانت سفينة كبيرة وجميلة ونظيفة جدًّا أيضًا، ولم يكن على متنها الكثيرون ممّن يجيدون التحدّث بالإنجليزيّة، فمعظمهم كانوا يتحدّثون الألمانيّة.

كان موعد الفطور عند الساعة السابعة والنصف، والغداء عند الحادية عشرة، والشاي عند الثالثة، والعشاء عند الساعة السادسة. وراح ابني الصغير يأكل كلّ شيء، فقد تحسّنت شهيّته بعد الإبحار، وبدا كأنّه بأفضل حال.

Scanned with CamScanner

كانت رحلتنا إلى ملبورن جميلة جدًّا أيضًا. فقد ذهبنا إلى وسط المدينة بالقطار، حيث المكان مزدحم ويعجّ بالحياة. رأينا السيّد معلوف والسيّد قيامة اللذين رحّبا بنا بحرارة. وكنت أعرف السيّد معلوف لدى زواجي من الياس قبل عشر سنوات. فهو بدوره كان متزوّجًا من فتاة شركسيّة رائعة حقًّا، ولديهما طفلان صغيران. لقد جاؤوا لرؤيتنا. وحضر أيضًا أحد ضباط «جيش الخلاص»، فإذا بنا نصبح أمام مجموعة كبيرة من المودّعين على رصيف الميناء.

استئنفنا رحلتنا إلى «أديلايد»، وكانت تشبه «كرايست تشيرش» كثيرًا. ذهبنا لرؤية بعض الأصدقاء السوريّين من معارفنا هناك، كما ذهبنا إلى منزل السيّدة «بلاكبيري». وكان الجميع سعداء جدًّا لرؤيتنا. لقد كبرت الطفلة ديسي وأصبحت فتاة يافعة.

بعد ذلك توجّهنا إلى مدينة «فري مانتيل»، بينما كان البحر هائجًا وخطيرًا. فهذه المنطقة تسمّى «العضّة الأوستراليّة» لأنّ بحرها غالبًا ما يكون هائجًا. ولكنّ الشكر لله على أنّنا عبرناها بسلام، فقد كنّا قد وصلنا إليها عند الساعة التاسعة مساءً، وغادرناها في التاسعة من صباح اليوم التالي، ولم يكن لدينا ما يكفي من الوقت لرؤية الكثير والذهاب إلى الشاطىء.

كان منظرًا خلّابًا.. «بيرث» بلدة تقع على بعد عدّة أميال عن تلك المدينة. وقد أبحرنا مجدّدًا في المحيط الهنديّ، وكان إبحارًا رائعًا لأنّ البحر سرعان ما بدا هادئًا جدًّا وناعمًا كالحرير، قلّما صادفتنا الأمواج فيه. شاهدنا منظرًا رائعًا لم أرَ مثيلًا له في السابق. حوالي مئة دلفين كانت تقفز وسط المياه. لم أرَ شيئًا جميلًا مثل هذا من قبل لدى غروب الشمس. وهكذا رحنا نفكّر بصوت عالٍ قائلين: «ما أجمل ما صنعه الربّ». فكلّ الصور الجميلة في العالم لا يمكن أن تضاهي هذا المشهد الخلّاب.

Scanned with CamScanner

وقد مازح البحّارة أطفالي قائلين إنّنا سنعبر الشمس لدى وصولنا إليها.

وصلنا في المساء إلى سيلان ومكثنا هناك طيلة النهار التالي بينما كانت السفينة تتزوّد بالفحم. يا إلهي كم هي مزعجة أصوات القعقعة التي يصدرها أولئك الأشخاص ذوو البشرة السمراء الداكنة! كانوا جميعًا شبه عراة لولا القطع القماشيّة التي يلفّونها حول خصرهم. كلّ اهتمامهم تركّز على الطفل الصغير، وراحوا يقبّلون يده، فقد بدا بينهم مثل زنبقة.

كان هناك أيضًا بعض الأطفال الذين لم يكن بوسعهم القول سوى: «قرشٍ يا سيّدتي». وقد اشترى لي الياس منهم وشاحًا ملوّنًا. بعد ذلك ذهبنا إلى الشاطىء على متن أحد القوارب الصغيرة التي لم يكن بوسعي الوثوق بأيٍّ منها، ثم ركب الياس بمفرده في عربة تجرّها الدواب.

وسرعان ما فتح البحّارة لاحقًا أبواب الصالونات، فأصبح بإمكاننا الدخول، وكنّا سعداء لأنّنا هربنا من الحرّ من جديد. كانت هناك أشجار خضراء تزيّنها الأزهار الحمراء. العديد من المسافرين عادوا إلى السفينة، ومن بينهم عائلة سيريلانكيّة محترمة... رجل إنجليزيّ متزوّج من فتاة سيريلانكيّة ولديهما أطفال رائعون. لقد كانوا في طريق عودتهم إلى ديارهم في إنجلترا، وقد شعرنا بالأسى لدى وداعهم فيما بعد نظرًا لأنّهم كانوا في غاية اللطف معنا. كان الدكتور كولومون طبيبًا عسكريًّا، وكان في طريقه إلى الديار لتمضية عطلة عيد الميلاد. وقد أعطانا عنوانه البريديّ وطلب منّا مراسلته.

شعرنا بالسعادة لمغادرة المكان، فالطقس كان سيّئًا على مدى سبعة أيّام. وقد مرّ عيد ميلادي بينما كنّا على متن الرحلة. لم يكن مسموحًا للسيّدات التنقّل على سطح السفينة. وعندما وصلنا إلى كولومبو، ارتدى كلّ ولد من أولادنا بدلة جديدة وحذاءً أبيض. شعرنا بالسعادة لأنّنا كنّا نقترب من عدن. وقد وصلنا عند منتصف الليل، فأيقظونا جميعًا وطلبوا

Scanned with CamScanner

منّا ارتداء ملابسنا والاستعداد لمقابلة الطبيب من أجل الكشف علينا لمعرفة مّا إذا كنّا مصابين بالطاعون.

من الجميل أنّني لم أنم تلك الليلة وقد أمضيتُ الوقت مع بقيّة المسافرين لأنّه كان ينبغي علينا المغادرة عند الساعة التاسعة صباحًا. وبمجرّد أن رست السفينة، صعد إلينا بعض الباعة وعرضوا علينا شراء بعض البطاقات البريديّة وغيرها من الأشياء، من بينها تلك القبّعة التركيّة التي تسمّى «طربوش». وقد اشترى الجميع تلك القبّعة، وكان من الرائع رؤيتها على رؤوسهم.

كان من الرائع أيضًا مشاهدة شروق الشمس من خلف الجبال. وقد غادرنا في اليوم التالي، وكان جميلًا أن نعبر فوق مياه البحر الهادئة من جديد، وأن يُسمح لنا مجدّدًا بالتنقّل فوق سطح السفينة. رأينا مشهدًا رائعًا. إنّه جبل سيناء، حيث مرّ الإسرائيليّون عبر البحر الأحمر. بعد ذلك وصلنا إلى قناة السويس. كان منظرًا جميلًا. أحد المفتّشين كان فنّانًا، فرسم لوحة للمنظر. لقد وصلنا خلال النهار، وكان ينبغي علينا الانتظار لنحو ساعتين قبل أن تعبر سفينتنا نظرًا لأنّ ممرّ القناة لا يستوعب مرور أكثر من سفينتين في وقت واحد.

في هذه الأثناء حضر القبطان ليعبر بنا النهر. إنّه أشبه بنهر يمرّ عبر رمال الصحراء على الجانبين. والقطارات تمر من هناك أيضًا، بعض الناس كانوا يستقلون القطارات وبعضهم الآخر متن سفينة.

فيما كنا ننتظر لبعض الوقت عبور السفن الأخرى، كان بعض الأطفال العرب يتهافتون على جانبيْ القناة لالتقاط القطع النقديّة المعدنيّة التي كان المسافرون يرمونها لهم.

وصلنا إلى بورسعيد عند منتصف الليل، فنزلنا من السفينة لأنها كانت مزمعة على الإبحار عند الساعة الخامسة صباحًا. أيقظتُ الأولاد، وبينما

Scanned with CamScanner

كنّا نستعدّ للخروج، التقيتُ بأحد المسافرين اللطفاء، وكان يعتزم السفر إلى «هيل»، فأعطيتُه رسالة لكي يسلّمها هناك إلى ابنة عمّي العزيزة بيسي من أجل إبلاغها بأنّنا أصبحنا في طريقنا إلى الشوير.

كان بعض المسافرين في طريقهم إلى القاهرة. وقد نزلنا إلى رصيف الميناء على متن قوارب صغيرة لنجد أنّ كلّ المتاجر كانت هناك مفتوحة، فيما كانت أضواء السفن رائعة حقًّا. وهناك مكثنا في أحد الفنادق لمدّة ثلاثة أيّام إلى أن أبحرت السفينة في وجهتها إلى بيروت.

لا شكّ في أنّ بورسعيد مكان جميل بالفعل. فهناك توجد طاولات ومقاعد على الطرقات، ويمكن للمرء أن يجد كلّ ما يريده. هناك أيضًا أشجار على الطرقات ومن الممتع الجلوس تحتها. إنّها بحقّ مدينة غير مزدحمة وهادئة. بائعو الحليب فيها يطرقون عليك الباب ويحلبون الماعز أمامك، وصانعو الأحذية يعملون بنشاط أمام محلّاتهم. وهكذا عدنا إلى السفينة بعد ذلك لاستكمال رحلتنا التي استغرقت ثلاثة أيّام إلى بيروت، وكان الأولاد في غاية السعادة.

توقّفنا في البداية في يافا. إنّها مدينة جميلة والقدس لا تبعد عنها كثيرًا ويمكن الذهاب إليها بواسّطة القطار. رأينا عددًا من الكهنة وهم يرتدون نفس الملابس تمامًا مثلما كنّا نراهم في الصور. وصعد إلى الباخرة عدد من بائعي الفاكهة لعرض منتجاتهم على المسافرين، وكانوا يستخدمون الحجارة في عمليّة تحديد الوزن. إنّه ميزان مضحك حقًّا. أمّا الباعة، فكانوا يعطونك عرضًا أسخى بكثير ممّا تتوقّعه. وقد مكثنا يومًا كاملًا هناك قبل أن نصل في اليوم التالي إلى بيروت.

استيقظتُ باكرًا مع الياس من أجل تجهيز كلّ شيء. لقد بدت بيروت مدينة كبيرة، ولكن لا يوجد فيها مرفأ ملائم، فقط كاسر أمواج ورصيف. فالقوارب الصغيرة فقط كان بإمكانها الدخول إلى أحواض الميناء، أمّا

Scanned with CamScanner

السفن الكبيرة فكان ينبغي عليها البقاء في الخارج. وقد وصل عدد من القوارب الصغيرة لنقلنا إلى رصيف الوصول، حيث كان عمّ الياس بانتظارنا وهو في غاية السعادة للقائنا. وبعد المرور عبر مصلحة الجمارك، أوصلتنا عربة إلى فندق يدعى: «المنظر الجميل».

Scanned with CamScanner

الفصل الثاني

السنوات الأولى في سوريا

كم يبدو الأمر غريبًا في هذه البلاد. فنحن، أنا والأولاد، لا نتحدّث كلمة واحدة من لغة أهلها. كلّ الكلمات تبدو غير مألوفة، ولكنّنا كنّا نحاول أن نتعلّم كلمةً كلّ يوم. أمضينا ستّة أسابيع في كروم العنب، ورحنا نستمتع بذلك يوميًّا وكنّا نقوم بنزهة، والأولاد في غاية السعادة، كما أنّهم سرعان ما بدأوا بالتكيّف مع طبائع الناس.

كانت لدينا غرفة فسيحة، وكان سريري في إحدى زواياها. ولكنّني لم أكن أعلم ماذا بوسعي أن أفعله خلال الليالي الأولى، نظرًا لأنّ الجميع كانوا يضعون فراشهم على الأرض وينامون في غرفة واحدة، إلى أن أخبرني زوجي بأنّ هذه هي إحدى العادات المتّبعة في هذا البلد، وأنّه ينبغي عليّ التكيّف معها. وقد كان عليّ بذل قصارى الجهد للتكيّف مع هذا الأمر لأنّ الجميع سيضحكون عليّ حتمًا إذا ما عرفوا أنّني أخالفهم في عاداتهم. ولا شكّ أنّ الربّ سيعتني بنا أنا والأولاد.

أفراد عائلة زوجي كانوا لطفاء جدًّا، وكان عمّهم نعمة الله يحبّ الأطفال كثيرًا، وخصوصًا جاك. فقد كان ينام معه دائمًا، كما أنّه سمّاه «الخبز والدبس» تيمّنًا بالأشياء الحلوة. فالدبس مصنوع من العنب، ولم يكن جاك يأكل أيّ شيء سواه.

Scanned with CamScanner

كنّا نستقبل العديد من الزوّار يوميًا. وقد مرّ الصيف وحلّ الخريف وبدأنا نشعر بالبرد الشديد ينخر عظامنا، سيّما وأنّ الطقس في نيوزيلندا لم يكن على هذه الدرجة من الحرارة في الصيف ولا على هذه الدرجة من البرودة في الشتاء.

عيد الميلاد الأوّل في الشوير (1914)

مرّت بنا الكثير من الأيّام الممطرة، وكان من الصعب أن أشعر بطقوس وأجواء عيد الميلاد لدى ذهابي إلى التسوّق. لا شيء يشبه عيد الميلاد إطلاقًا. لم أكن أعرف ما إذا كنت قد اتّخذت القرار الصائب بالقدوم إلى هذه البلاد. وعلاوة على ذلك، كنت في غاية القلق على الياس بعدما أمعن فيه المرض. كان شقيقه نعمة الله إنسانًا لطيفًا ولم يكن لديه أولاد. أمّا شقيقه الآخر خليفة(؟) (Clefie)، فلم أكن أعلم ما به لأنّه غالبًا ما كان يُظهر شراسة مع الياس ونعمة الله.

نسيتُ أن أقول إنّ والدة الياس كانت قد توفّيت قبل أربعة أشهر من وصولنا، الأمر الذي أحزن زوجي كثيرًا. لقد كان من المقدّر للأمور أن تكون مختلفة لو أنّها ما زالت على قيد الحياة، وقامت باستقبالنا، سيّما وأنها كانت قد بكت كثيرًا نظرًا لأنّها لم ترَ الياس على مدى اثنين وعشرين عامًا.

عندما حلّ فصل الربيع، ذهبنا للإقامة مع العمّ الياس الذي كان قد عمل قاضيًا على مدى أربعين عامًا، وتزوّج في سنّ متأخّرة، ولديه ولد واحد اسمه عزيز.

كان عزيز ولدًا ذكيًا في الثامنة من عمره، ولكنّ صحّته لم تكن جيّدة. لقد أمضينا وقتًا ممتعًا هناك، وقمنا بزيارات إلى معظم المنازل، حيث كان العمّ الياس يقول لي: «أحضرتك لكي ترين كلّ شيء، وها الجميع يأتون لرؤيتك»، خصوصًا وأنّهم يعتبروني طويلة القامة. ولكن في آخر مرّة

Scanned with CamScanner

أجريتُ فيها قياسًا لطولي كنت ستّة أقدام وإنش ونصف الإنش، وهو ما لا يُعتبر طولًا مقارنة بطول الرجال، ولعلّ تنّورة السيّدات هي التي كانت تجعلني بنظرهم أطول.

بعد ذلك أمضينا عدّة أسابيع في بيروت، وكان العمّ نعمة الله يأتي لزيارتنا من حين لآخر، بينما كان الياس لا يزال مريضًا جدًّا.

في إحدى المرّات جاء نعمة الله لزيارتنا وأحضر معه مأكولات شهيّة، فقد كان يشعر بسعادة عارمة مع الأولاد. وعندما حلّ المساء، توجّه إلى الشوير، ولكنّ ما حصل هو أنّه وقع عن حصانه في منتصف الطريق الجبليّة، حيث عثر عليه أحد الرجال وأوصله إلى منزله في الشوير.

شعرنا بالحزن الشديد لأنّنا كنّا جميعًا نحبّه. وعندما ذهبنا إلى الشوير، وجدناه مريضًا جدًّا، وكان ممدّدًا على جانب واحد.

كان المنزل صغيرًا ولا يتّسع لنا جميعًا، فأرسلَنا خليفة إلى منزل قديم يملكه، ولم يكن قد استُخدم منذ سنوات طويلة. وقد بذلتُ كلّ الجهد الممكن في هذا المنزل، ولكنّه كان كئيبًا. وبينما بقي الياس مع شقيقه لأنّه كان يسأل عنه باستمرار، شعرتُ بعد عدّة أيّام بالمرض، فأبلغني الدكتور حبيب أنّني مصابة بداء المفاصل نظرًا لأنّني لم أكن قادرة على التحرّك. وقال لي إنّ وضعي لن يتحسّن في هذا المكان، وخصوصًا بسبب عدم وجود أيّ شخص للعناية بي.

كانت توجد مستشفى تديره جماعة الأصدقاء الإنجليزية، ففكّرت: «هل أذهب»؟ ولكن «كيف يمكنني أن أترك أولادي الأعزّاء وحدهم»، و«من سيعتني بهم؟»

غير أن الله أراد أن يعلّمني درسًا مفاده أنّ الأولاد سيكونون بخير أثناء غيابي.. ولا أحد يمكن أن يدرك كم خفتُ بينما كنت وحيدة وبعيدة عن الأولاد، وكذلك بسبب عدم إلمامي باللغة المحليّة. فالناس هنا يتحدّثون

Scanned with CamScanner

بصوت مرتفع ويتصرّفون بطرق غريبة. وقد شعرتُ بالسعادة عندما التقيت أحد أفراد جماعة الأصدقاء ممن يتحدّثون بالإنجليزيّة، ولن أنسى كم كان الدكتور حبيب لطيفًا معي.

حلمتُ في إحدى الليالي بأنّ العديد من الأحصنة كانت تدوس عليّ وتسحقني، وبأنني تعرّضتُ لإصابات بالغة، وسمعتُ الطبيب يقول لشقيقي الذي كان واقفًا إلى جانبي: «لم يعد بإمكاننا إنقاذها، وحده المسيح قادر على ذلك». ثمّ شعرتُ بأنّني قويّة للغاية مستمدّة ذلك من ذراعين أحاطتا بي، ذراعَيْ المسيح، قبل أن أشعر بأنّني تحرّرتُ ورحتُ أرتفع عاليًا، لأرى أضواءً مبهرة لم يحدث أن رأيتُ مثيلًا لها على الأرض، ولأسمع آلاف الأصوات الجميلة حولي وهي تغنّي: «المسيح، عاشق روحي». وكلّما كنت أرتفع أكثر فأكثر، كلّما كانت الأصوات تزداد صفاءً والأضواء إبهارًا. وهنا استيقظتُ، وفكّرت بأنّنا عندما نموت ويلفّ المسيح ذراعيه الرائعتين حولنا، لن نشعر بالخوف على الإطلاق.

في الليلة التي سبقت مغادرتي الشوير، صلّيتُ لكي أبقى قويّة. وكان قد راودني حلم آخر بأنّني كنت أتسلّق صخورًا رطبة وقابلة للانزلاق، وحينما قطعت نصف المسافة، رأيت رجلًا واقفًا فوق الصخور. كان شاحبًا ولكنّ جميل الوجه. نظر إليّ بحزن عميق، فسألتُه عمّا إذا كنت أسير في الاتّجاه الصحيح، فقال لي: «واصلي السير.. واصلي السير.. فأنت ستعبرين بأمان». وعندما استيقظتُ في الصباح، ورأيتُ العربة التي كانت تنتظرني للتوجّه إلى برمانا، طلبتُ المساعدة من الله، وحصلتُ عليها، وغادرتُ تاركة أولادي الأعزّاء.

كان زوجي يرافقني. وبعد رحلة طويلة، وصلنا إلى مستشفى برمانا ورأينا الممرّضة ماغبي. وقد شعرتُ بالسعادة عندما سمعتها تتحدّث بالإنجليزيّة، سيّما وأنّني كنت متعبة جدًّا ولم يكن في وسعي الانتظار

Scanned with CamScanner

أكثر. استلقيتُ على السرير إلى أن استُدعيتْ رئيسة الممرّضات الآنسة ت. كومنيتون التي ستصبح أفضل صديقة أهداها لي الربّ على الإطلاق. وقد حضرتْ الآنسة كومنيتون، حفظها الربّ، وسألتني عن جنسيّتي، وبمجرّد أن أخبرتها بأنّني إنجليزيّة وجئتُ من «كرايست تشيرش» في نيوزيلندا، فرحتْ كثيرًا، وأبلغتني بأنّ شقيقها موريس يعيش في المدينة نفسها. وسرعان ما علمتُ أنّ أمّي كانت تعرفهم، الأمر الذي أعطانا سببًا آخر للفرح. وكانت الأخت إيثيل ليفن إنجليزيّة أيضًا.

بعد ذلك حضر الدكتور طنوس منسى (Menassah) للكشف عليّ، ولم يكن بوسعي سوى أن أشكر الله لأنّه أرسل لي هؤلاء الأصدقاء الطيّبين. وبعد مغادرة زوجي إلى الشوير، وضعوني على السرير، وكانت هناك صورة كبيرة للمسيح وبطرس يحاول السير على سطح البحر. إنّه الوجه الذي رأيتُه في حلمي، نفس الوجه الأبيض الحزين. كيف يمكن أن أفكّر بهذا الحلم وأنا التي لم يحدث أن زرتُ برمانا من قبل، كما أنّني لم أرَ مثل هذه الصورة في السابق أيضًا؟ وعندما أخبرتُ الآنسة كومينتون عن ذلك الحلم وعن تلك الصورة المعلّقة على الحائط، قالت لي إنّ الربّ أرسل لي هذا الحلم لكي يريحني. وقد شعرتُ لاحقًا بالتحسّن، ولكنّني بقيت مريضة وضعيفة.

الآنسة كومنيتون، الأخت ستيفنز، السيّدة كلارك، السيّد والسيّدة جوزي (Jose)، السيّدة إيثيل ليفن، الدكتور والسيّدة منسى (Menassah)، كانوا جميعًا من خيرة الأصدقاء وفي غاية اللطف معي. وقد دعتني الآنسة كومينتون بعد ظهيرة أحد الأيّام إلى اجتماع الأصدقاء. لقد استمتعتُ حقًّا بالخدمة الروحية والتراتيل وأجواء الصلاة الهادئة، وكنت متأكّدة من أنّ المسيح كان معنا في ذلك الاجتماع. ويا إلهي ما ألطف الآنسة إيثيل إكرويد والآنسة ديكنسون والآنسة براون. حماهم الربّ جميعًا.

Scanned with CamScanner

في أحد الأيّام حضر زوجي لمعرفة ما إذا كنت قد تحسّنتُ بما فيه الكفاية من أجل العودة إلى المنزل، فما كان من الدكتور طنوس والآنسة كومنيتون إلّا أن أخبراه بأنّه ينبغي عليّ البقاء في المستشفى لمدّة أطول طالما أنّ الأولاد بخير، لأنّني أحتاج إلى المزيد من العناية. وبعد مغادرته، جلستُ في الخارج بينما كان يغمرني الحزن ولا أفكّر إلّا بأولادي الأعزّاء. رأيت الآنسة كومنيتون فسألتُها ما إذا كان لديها كتاب يمكن أن تعيرني إيّاه، فوجدتْ لي بالفعل كتابًا، وعندما نظرتُ إلى الغلاف الخارجيّ، إذا بي أقرأ: «من السيّدة هيلين بيز»، ففكّرتُ كم أنّ الأمر غريب... لا بل ربّما كان ذلك استجابة لصلاتي، سيّما وأنّ اسم عائلتي هو «بيز». وعندما رأيتُ الآنسة كومنيتون لاحقًا سألتُها: «كيف تعرفين تلك السيّدة»؟ فأجابتني بأنّها صديقتها، وكانت قد أمضت إحدى فصول الصيف في الجبل، وهي من إنجلترا. فأخبرتُ الآنسة كومنيتون عن اسم والدي، وأطلعتُها على نسخة الإنجيل التي أُعطيت لي عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وكان اسمي مدوّنًا عليها، وكيف حاول والدي لسنوات طويلة إثبات انتمائه إلى هذه العائلة بعد أن كان جدّي قد فرّ بعيدًا عن دياره وتزوّج من جدّتي ولم يخبر والدي عن أصل العائلة، وكيف جاء رجل وسيم إلى نيوزيلندا للبحث عن شخص مفقود بهذا الاسم. كانت صورة ذلك الرجل مقارنة مع والدي توحي بأنّهما شقيقان، ولكنّهما لم يتمكّنا من إثبات ذلك. وقد بعث رسالة إلى إنجلترا، ولكن في تلك الأيّام الغابرة لم تكن توجد سجلّات لشهادات الزواج والولادة والوفاة. على هذا الأساس، لم يكن لدينا أيّ شيء لإثبات الأمر سوى أنّ ابنة شقيق والدي الأكبر كانت لديها ساعة قديمة، ولكنّ هذا الأمر ليست له أيّ قيمة في الموضوع.

كانت الآنسة كومنيتون سعيدة جدًّا بالأمر، وقد بعثتْ رسالة إلى السيّدة بيز. أمّا أنا، فقد عدتُ لاحقًا إلى الشوير، وكنت في غاية السعادة

Scanned with CamScanner

لوجودي مجدّدًا في المنزل، ولكنّ طفلتي الصغيرة لم تتعرّف عليّ، ولم تكن تقترب منّي. (1915).

في الصيف، سافرتْ الآنسة كومنيتون لتمضية إجازتها السنويّة. أمّا نحن، فقد ذهبنا إلى حقول العنب لتمضية بعض الوقت. وبعد أسبوع، أصيبت غلاديس بالحمّى لمدّة عشرة أيّام، كما أنّ بيرل شعرت بالمرض وأصابتها الحمّى أيضًا. وفي تلك الأثناء، استلمتُ رسالة من الآنسة كومنيتون أبلغتني فيها بأنّها التقت مع السيّدة بيز، وبأنّ هذه السيّدة اللطيفة أرسلت لي عشرة جنيهات.

كتبتُ بدوري للآنسة كومنيتون وأخبرتُها بشأن مرض بيرل، فردّت عليّ بالقول إنّه ينبغي علينا أخذها إلى المستشفى. وهذا ما حدث بالفعل. وبعد ثلاثة أسابيع، أصبحت ابنتي قادرة على الحركة. وقد قالت لي الآنسة كومنيتون أيضًا إنّه ينبغي علينا إنفاق نصف المبلغ لتسجيل بيرل في مدرسة برمانا للبنات عندما يصبح بإمكانها الذهاب إلى هناك.

«أكتب هذه السطور إلى صديقتي العزيزة الآنسة كومنيتون لكي تقرأها عندما سيصبح بإمكانها العودة إلى سوريا.»

الإيمان

لا يمكنني الرؤية من خلال ضوئي الإنسانيّ الصغير...

لماذا الربّ يقودني إلى هذه الوجهة أو تلك؟

أنا أعرف فقط أنّه قال:

اتبعوني يا أطفال...

ولكنّني قادرة على أن أؤمن وأعرف ليس لماذا يجب أن يكون طريقي مسيّجًا،

ومحظورًا مسبقًا بشكل غريب... أنا أعرف فقط أنّ الربّ يترك الباب واسعًا،

Scanned with CamScanner

ولكن يمكنني أن أؤمن ولا يمكنني أن أعرف،
لماذا ينبغي على العواصف أن تهبّ فجأة من حولي في طريقي،
ويمكنني أن أؤمن...
ليست لديّ القوّة للنظر بين المدّ والجزر،
لرؤية الأرض وراء النهر،
ولكنّني أعرف أنّني سأكون للربّ إلى الأبد،
ولهذا فأنا قادرة على الإيمان...

Scanned with CamScanner

الفصل الثالث

كانون الأوّل (ديسمبر) 1915

أمضينا عيد الميلاد للعام الثاني في الشوير، وذهبنا إلى منزل الدكتور والسيّدة ر. حاوي لمشاهدة شجرة الميلاد هناك. السيّد حاوي هو قسيس أعمى ومتزوّج من إنجليزيّة ولديه خمس بنات. وقد أمضينا ساعات سعيدة جدًّا معهم.

بعد ذلك ذهبنا لعدّة أشهر إلى بيروت، وكنت أقوم هناك بأعمال الخياطة لكلٍّ من السيّدة الإنجليزيّة جولي والسيّدة الإسكوتلنديّة غوردون، ولن أنسى ما حييت لطفهم معي.

أتذكّر أنّني ذهبت في أحد الأيّام إلى السيّدة غوردون وكنت مبلّلة وضعيفة وأشعر بالبرد. فقد أردتُ أخذ بعض العمل إلى المنزل نظرًا لأنّني كنت في أمسّ الحاجة للمال. وبينما كنت أنتظر، رأيتُ لوحة على الحائط كُتب عليها: "وهنا أيضًا ساعدنا الربّ"، فشعرتُ بالارتياح. وعندما حضرتْ السيّدة غوردون، أشادت بعملي، وأعطتني المزيد للقيام به. وأكثر من ذلك، فقد قدّمت لي حليبًا ساخنًا وقطعة من الحلوى، ثمّ رأت أنّني لا أملك من الملابس ما يقيني من البرد، فأعطتني بعضًا من كسوتها، تمامًا مثلما كان المسيح ليفعل، فأنا أعلم أنّه سينظر إلى الأمر على أساس أنّه عملًا جيّدًا.

Scanned with CamScanner

بعد عدّة أيّام، زارتني إحدى صديقاتي وتدعى الآنسة "موأت" (Moate) بينما كنت أغنّي «عدَّ بركاتك الكثيرة.. عدَّها الواحدة تلو الأخرى». قالت لي: «كيف يمكنك الغناء في وقت تعملين فيه بجدّ وكدّ... وكيف يمكنك أن تشعري بالسعادة دائمًا»؟ فقلت لها إنّ الربّ يرسل لي دائمًا ما أريد. وبعد مرور أسبوع على ذلك، ذهبتُ إلى السيّدة غوردون وأخبرتُها كم سبّبت لي الكلمات التي قرأتُها على جدارها من راحة وطمأنينة، فقالت لي: «لقد قمتِ بالكثير من الأعمال الجيّدة من أجلي، ومنذ عدّة أيّام، زارتني الآنسة موأت (Moate) لتبلّغني بأنّ السيّدة بو صادر الفقيرة كانت تغنّي «عدَّ بركاتك» في حين أنّ زوجها مريض، ففكّرتُ بنفسي، وبأنّني أملك منزلًا جيّدًا، ولديّ الكثير من الطعام، وعندي زوج لطيف، ولكنّني لست سعيدة، فما كان منّي إلّا أن بدأتُ بعدّ البركات، وشعرتُ بالسعادة مجدّدًا.»

مكثنا إذن في بيروت حيث أقمتُ صداقات مع العديد من الناس، وكانت السيّدة جولي بدورها لطيفة جدًّا معي. بعد ذلك عدنا إلى الشوير، فشعرتُ بالمرض مجدّدًا. وقد جاءت إحدى صديقاتي من برمانا لزيارتي، كما جاء أيضًا الدكتور طنوس للكشف على الياس، فأخبرني بأنّ زوجي مصاب بالقرحة في معدته، فتمّ نقل الياس إلى مستشفى برمانا، ورافقه العمّ نعمة الله. بعد فترة، أخذتُ الأولاد وتوجّهتُ بهم إلى بيروت. كانت بيرل في مدرسة البنات، وتركنا جاك في المدرسة الأميركيّة في الشوير. وهكذا أخذتُ غلاديس وهاري معي، وأقمنا في منزل يملكه البروفسور هال. بعد ذلك حضر الياس إلى بيروت وذهب لرؤية الدكتور غريهام، بينما ذهبتُ بدوري لرؤية الدكتور دورمير. وقد وافق الاثنان على إجراء عمليّة جراحيّة لزوجي، وسألاني عمّا إذا كنت موافقة على ذلك.

قال لي الياس إنّه يترك الأمر بناءً على رغبتي، فما كان منّي إلّا أن صلّيتُ كثيرًا، وفكّرتُ بمعاناته المستمرّة منذ نحو خمسة عشر عامًا، مدركة أنّه إذا

Scanned with CamScanner

تُرك على هذا النحو، فسوف يموت في غضون أسابيع قليلة. وقد تحدّثنا حول الموضوع وقرّرنا إجراء العمليّة في المستشفى الألمانيّ. لقد كنت في غاية القلق عليه، والسيّدة دال بدورها التي كانت تستعدّ للسفر إلى أميركا قالت إنّها سوف تصلّي من أجله.

يا إلهي ما ألطف هؤلاء الناس. لقد جاءت السيّدة هال ذات يوم وعرضت عليّ المساعدة، ولكنّني قلتُ لها إنّني سوف أعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، من دون أن أدري أنّ ذلك سيكون بمثابة كفاح حقيقيّ. وكانت السيّدة هال ترسل الحليب دائمًا إلى الأولاد.

في تلك الفترة، كتبتُ رسالة لاجتماع «الأصدقاء» عبّرت فيها عن رغبتي في الانضمام إلى كنيستهم نظرًا لأنّني شعرتُ بالسعادة خلال الاجتماع، ولدرجة أنّني شعرتُ كأنّ المسيح كان حاضرًا معنا. وقد حضر كلٌّ من السيّدة كلارك والسيّد فوكس لزيارتي وتحدّثنا حول كلّ ما يؤمنون به.

كم كان كلٌّ من الدكتور دورمير والدكتور غريهام بارعيْن في تنفيذ العمليّة التي تكلّلت بالنجاح. لقد كانت معدة زوجي مغلقة نسبيًّا بسبب القرحة ما كان يحول دون مرور الطعام فيها، فما كان منهما إلّا أن عملا على تمرير أنبوب لوصلها مع جزء آخر. كان شيئًا رائعًا، خصوصًا وأنّ زوجي لم يكن يتناول على مدى السنوات الأربع الأخيرة سوى الحليب نظرًا لأنّ معدته لم تكن قادرة على التكيّف مع الطعام.

المرّضات بدورهنّ كنّ لطيفات أيضًا، وبخاصّة الممرّضة هامّاه. كما أنّ جميع الأصدقاء كانوا يصلّون لزوجي، وهو بدوره كان ممتنًّا لذلك. لقد قال لي إنّ حياة جديدة كُتبت له.

بعد ذلك بستّة أسابيع رزقنا بمولودة سمّيناها هيلين. وتمّت الولادة في مستشفى السيّدة ديل التي أمضيتُ فيها حوالي أسبوعين، حيث كانت الممرّضات هناك رائعات أيضًا. وقد حضر الياس وغلاديس وهاري إلى

Scanned with CamScanner

المستشفى وعانقوا المولودة الجديدة، وكم شعرتُ غلاديس بالفخر، هي وهاري، بأختهم الصغيرة، حتّى أنّ غلاديس هي التي قامت بحمل هيلين أثناء مغادرة المستشفى إلى المنزل. وشكرًا للربّ على كلّ ذلك، فصحّة زوجي أصبحت جيّدة، وها أنذا أرزق بطفلة صغيرة، وكلّ ذلك بإرادته، فهو وحده الذي يعلم ما هو الأفضل بالنسبة إلينا.

في تلك الأثناء، كان جاك ينتظرني من أجل نقله إلى بيروت نظرًا لأنّ صحّته تدهورت بسبب قسوة فصل الشتاء، ولكنّني لم أكن أملك المال الكافي للحصول على عربة للذهاب. وفي أيّ حال، سرعان ما حان موعد الأعياد وأصبح جاك في وضع أفضل. لم تكن قدماه في حالة جيّدة نظرًا لتورّم الأصابع، فذلك الشتاء لم يحدث أن مرّ مثله لسنوات طويلة، ولدرجة أنّنا لم نتمكّن من الخروج من منازلنا لمدّة عشرة أيّام.

أمضينا وقتًا جميلًا أنا وجاك مع ابن السيّدة أرمسترونغ الصغير الذي يدعى هيكتور، والذي اعتاد على أن يمرّ دائمًا لرؤيتنا. كان طفلًا وحيدًا، وأعتقد أنّه كان يجد كلّ وسائل الاستمتاع التي يمكن أن تتوفّر للأطفال لدى قدومه إلينا، حيث أنّه قال: «أحبّ الطريقة التي تتعامل بها السيّدة بو صادر مع الأطفال». فعلى الرغم من ضآلة ما يمكن أن يكون متوفّرًا لدينا، فقد درجت العادة على أن أُجلِس الأطفال حول المائدة، بمن فيهم هيكتور، قبل أن أقوم بتوزيع كلّ ما لدينا بالتساوي عليهم. وفي بعض الأوقات، كانت أمّه تعطيه بعض الأموال، وكان بدوره يشتري بعض الأغراض ويأتي بها إلى منزلنا لتقاسمها مع أولادي. وقد شعرنا بالأسف عندما قرّروا العودة إلى إنجلترا... ومنذ ذلك الحين لم نسمع أيّ شيء عنهم.

في تلك الأثناء ذهب جاك إلى المدرسة، ولكنّ الحزن ظلّ يلازمنا. فقد وصلتنا رسالة مفادها أنّ العمّ نعمة الله مات، فذهبنا على الفور إلى الشوير لنعرف أنّ ما حدث هو أنّ العمّ نعمة الله كان قد توفيّ بينما كان

Scanned with CamScanner

جالسًا تحت أشعة الشمس بين الثلوج البيضاء التي أحاطت بمنزله. يبدو لم يكن قادرًا على تحمّل درجة الحرارة ففارق الحياة.

أمضينا أعياد الميلاد وقتذاك في منزل عائلة الدكتور حاوي التي رحبّت بنا أجمل ترحيب. السيّدة كارسلو والآنسة تومفيلا كانتا في غاية اللطف معنا... ففي كلّ مكان، كان الله يرسل لي أصدقاء أوفياء.

كانت بيرل لا تزال في المدرسة. وقد تلقّيتُ رسالة من الآنسة كومنيتون مفادها أنّ السيّدة بيز تكفّلت بمصاريف دراسة جاك، فما كان منّي إلّا أن أسرعتُ في تجهيزه للذهاب. يا إلهي ما أجملك. لقد سميّتُ طفلتي هيلين المعطاءة، وكتبتُ رسالة شكر للسيّدة بيز على إرسال المال من أجل جاك، فأرسلتْ بدورها هديّة لهيلين، كما أنّ الآنسة كومنيتون أحضرتْ لها حذاءً ومريوليْن. وبعد فترة، شعرتُ بوعكة صحّية مجدّدًا، وجاء شاب يدعى ميخائيل لرؤيتي، ثمّ سارع إلى إبلاغ الآنسة كومنيتون بشأن مرضي، فما كان منها إلّا أن بعثت رسالة لي تطلب منّي فيها الحضور مع طفلتي لأنّ الممرّضات سيقمن باللازم معنا. وعلى هذا الأساس عدتُ إلى برمانا، وكم كنت سعيدة بذلك، سيّما وأنّني ما لبثتُ أن استرجعتُ عافيتي بسبب المعاملة اللطيفة التي كنت أتلقّاها والطعام الجيّد الذي كنت أتناوله.

لم أكن سعيدة في الشوير نظرًا لأنّ أقاربي لم يعاملوني بلياقة، سيّما وأنّهم غالبًا ما كانوا يثرثرون حول موضوع الأملاك. وعلى هذا الأساس، قالت لي الآنسة كومنيتون إنّه لا ينبغي عليّ العودة، وإنّها ستؤمّن لي عملًا يكفيني لتدبّر أمري. وقد أرسلت لتطلب الأولاد، وأمضينا عامًا سعيدًا مع أصدقاء رائعين. كنت أقوم بأعمال الخياطة، وكانت تعيش معي شابة تدعى الآنسة وارنر.

يا إلهي كم كانت الآنسة كومنيتون جيّدة معي، ولدرجة أنّه يمكنني تأليف كتاب كامل للتحدّث عن أفضالها.

Scanned with CamScanner

شباط (فبراير) 1916

ذهب الياس إلى بيروت من أجل رؤية جاك وبيرل، وكان يريد أن يرسل لي بعض المال مع سائق عربة الخيل. وفي مساء الاثنين، لم يكن لدينا سوى القليل لنأكله، فطلبتُ، أنا والأولاد، من الله أن يرسل لنا شيئًا. وفي صباح اليوم التالي، ذهبتْ غلاديس لرؤية ما إذا كان هناك أيّ شيء لنا، ولكنّ السائق أخبرها بأنّه لم يرَ الياس، الأمر الذي وضعنا في موقفٍ لا ندري معه ماذا ينبغي علينا أن نفعله. وقد سارعتُ إلى الطلب من الأولاد الإبقاء على إيمانهم بالربّ لأنّه لن ينسانا. وعلى هذا الأساس، أرسلتُهم إلى المدرسة من دون تناول وجبة الفطور، ثمّ طلبتُ من الله أن يهدي قدميّ إلى الوجهة الصحيحة. فكّرت بالذهاب إلى السيّدة حاوي لمعرفة ما إذا كان بإمكانها إعطائي قرشين نظرًا لأنّنا غير قادرين على الحصول على أيّ شيء من دون المال هذه المرّة.

عرضتُ عليهم أخذ خاتم الزواج، ولكنّهم كانوا لطفاء جدًّا، حماهم الله، فأعطوني قسيمة تخوّلني الحصول على بعض الطحين أو بعض الخبز من المتجر. وعندما ذهبتُ إلى هناك، لم يكن يوجد أيّ طحين أو أيّ خبز فيه، فطلبتُ غلاديس من المدرسة، وأرسلتُها إلى منزل السيّدة، وبينما كانت في الطريق، ركعتُ لأطلب من الله مساعدتي على إيجاد أيّ شيء لإطعام الأولاد على العشاء. وعندئذ سمعتُ صوتًا يناديني: «السيّدة بو صادر»... وسرعان ما اكتشفتُ أنّ السيّدة غارسلو أرسلت لي بعض الحساء، فشكرتُ ربّي عليه، قبل أن أسمع صوتًا آخر يناديني من قبل رجل جاء من بيروت وأحضر لي إعانة من أصدقاء هناك، من بينهم السيّدة تالبرت التي أرسلت بعض البرغل وبعض اللحوم وبعض المواد الغذائيّة الأخرى للأولاد. يا إلهي كم كنت سريعًا في الاستجابة لدعواتي. وليحفظ الربّ السيّدة تالبرت على لطفها.

Scanned with CamScanner

سارعتُ إلى إعداد وجبة للأولاد، في هذا الوقت كانت غلاديس قد عادت للتوّ من منزل السيّدة حاوي حاملة معها بعض الخبز، إضافة إلى وعاء يحتوي على الحساء واللحوم. وهنا نظرتُ مجدّدًا إلى اللوحة المعلّقة على الجدار التي كُتب عليها: «الربّ سوف يزوّدنا بكلّ ما نحتاج إليه.»

(التاريخ غير محدّد) المسيح أرسلها

في أحد الأيّام، طرق صبيّ باب الدار حاملًا معه عبوة كاز، فسألتُه: «من أرسلها»؟ قال لي إنّ الله هو الذي أرسلها. وقد عرفت على الفور من أرسل القارورة، إنها الآنسة التي نذرها الربّ لفعل الخير للجميع.

كان ابني الصغير يعرف أنّ الآنسة كومنيتون اعتادت على إرسال الكثير من الأغراض إلينا. وقد سألني ذات مرّة عن المكان الذي أُحضِرُ منه تلك الأغراض، فقلتُ له إنّ «المسيح يرسلها لنا»، وعندئذ قال لي: «إنّ الآنسة كومنيتون هي المسيح وكذلك الأخت العزيزة ستيفنز»! كان يعرف أنّهما ترسلان لي دائمًا علب السردين من أجل الأولاد. لقد كانتا في غاية الطيبة معنا.

في تلك الأثناء حضر السيّد س. بوكي مع زوجته لزيارتنا. كانا لطيفين جدًّا، وأعتقد أنّهما من عائلة ثريّة، لكنّهما لا يُظهران أيّ سمة من سمات التكبّر. لقد اعتادا على القيام بنزهة سيرًا على الأقدام في كلّ مساء، وكانا يمرّان لرؤية الصغيرة هيلين، خصوصًا لأنّهما يحبّان الأطفال كثيرًا.

الآنسة كومنيتون من جهتها كانت قد أمّنت عملًا لزوجي الياس، ولكنّه لم يواظب عليه، الأمر الذي جعلها تشعر بالغضب، ولدرجة أنّها توقّفت عن الحضور لرؤيتي، حتّى أنّها لم تعد تبادلني بأيّ ابتسامة عندما كنت أقابلها بالصدفة، وكانت تكتفي بالقول «صباح الخير» لا أكثر، دون أن أكون قد فعلتُ أيّ شيء من شأنه دفعها على إظهار كلّ هذا الغضب تجاهي.

Scanned with CamScanner

لقد خفتُ كثيرًا من هذا الأمر، وكنت حزينة جدًّا بسببه. فيا إلهي ماذا عساي أن أكون قد فعلت؟ في الحقيقة لا أدري.

في هذا الوقت خسر العمّ الياس ابنه الوحيد!

لقد كنت وقتذاك مريضة ولم أكن قادرة على التنفّس. اتّصلنا مع الدكتور طنوس، فقال لنا إنّه ينبغي ألا أُترك لوحدي. ولكن كان على الياس أن يذهب، وعندما عاد كانت حالتي الصحّيّة قد ازدادت سوءًا. لقد شعرتُ بخوف وإحراج شديدين حيال الآنسة كومنيتون. وعندما حضر الطبيب مجدّدًا، طلب على الفور نقلي إلى المستشفى. وهناك تقابلتُ مع الآنسة كومنيتون والآنسة ستيفنز، فأظهرتا الكثير من اللطف معي وعادت الأمور بيننا إلى ما كانت عليه. وحتّى ذلك اليوم لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يكون قد حدث، ولكنّني صلّيتُ لله وطلبتُ منه إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

لقد كان أحدهم أطلق شائعة مفادها أنّني كنت أرغب في الانضمام إلى أصدقاء الكنيسة طمعًا في المساعدات التي يمكن أن أحصل عليها. وهذا أمر لا يمتّ إلى الحقيقة بأيّ صلة، خصوصًا وأنّني أردتُ الانضمام لأنّني كنت أحبّ الذهاب إلى هناك، وأشعر بالسعادة والراحة. الربّ وحده يعرف ما في القلوب.

أمضيتُ ستّة أسابيع في المستشفى، ثمّ عدتُ إلى المنزل لمدّة أسبوعين، وبدأتُ أفكّر جدّيًّا وقتذاك بالذهاب إلى بيروت. وقد جهّزتُ كلّ الأمور المتعلّقة بهذا الأمر انتظارًا للفرصة التي ستسنح لي للقيام به.

Scanned with CamScanner

الفصل الرابع

آذار (مارس) 1916

أُصبتُ بوعكة صحّيّة مجدّدًا وشعرتُ بأنّني مشتاقة إلى صديقتي العزيزة الآنسة كومنيتون. فكم هي لطيفة معي، حماها الله وحفظها من كلّ شرّ. كنت أتمنّى أن يمرّ الوقت بسرعة لكي يعود كلّ الأعزّاء مجدّدًا وتنتهي هذه الحرب.

لقد أصبح كلّ شيء غاليًا. فسعر رطل الطحين وصل اليوم إلى سبعة عشر قرشًا ونصف القرش. فليساعدنا الله جميعًا، وخصوصًا الأطفال الذين غالبًا ما كانوا يشعرون بالجوع باستمرار.

كانوا يحتفظون دائمًا بقطعة الخبز الخاصّة بهم، وكان طفلي الصغير ينظر إليّ باستغراب أثناء قيامي بتقطيع الرغيف، ويسارع إلى المطالبة بحصّته. كانت لدينا علبة كبريت واحدة.

ومن أجل التوفير، غالبًا ما كنّا نحصل على بعض الجمرات لإشعال النار من أحد الجيران إذا ما بادر بإشعال النار أوّلًا، وكان الجيران يفعلون المثل عندما كنّا نسبقهم إلى ذلك.

قرأتُ قصيدة شِعر تقول: «لا تنظر إلى الأخطاء بينما أنت تمضي في حياتك، وحتّى إن عثرتَ عليها، فمن الأفضل أن لا تشاهدها، وتكتفي بالنظر إلى العِبَر التي تحملها.»

Scanned with CamScanner

لقد وصل سعر الصابون إلى بيشليك ونصف، وسعر الكعكة إلى أربعة ميتليكات.

الأحد، نهاية آذار (مارس)

أنا سعيدة جدًّا لأنّ السيّدة تالبرت تمكّنت من العثور على منزل جيّد لغلاديس. فابنتي المسكينة غالبًا ما كانت تشعر بالجوع، أمّا الآن، فيمكنها أن تجد ما تأكله. الشكر للربّ.

الثلاثاء

لم نعرف كيف يمكننا الحصول على قطعة من الصابون، فقد أصبح سعرها غاليًا جدًّا. طلبتُ المساعدة من الله، وإذا بابن السيّدة كارلسون يُحضِر لي قطعة أرسلَتها لي السيّدة تالبرت من بيروت.

الأحد

بدأ الياس وغلاديس السير باتّجاه بيروت. كان الجوّ جميلًا وقتذاك، ولكنّه سرعان ما اضطرب وهطلت الأمطار، فطلبتُ من الربّ أن يهديهما إلى ملجأ في مكان ما يقيهما من البلل. لم أكن أعرف كيف سأكون قادرة على تأمين الطعام أثناء غيابهما، ولكنّني تمسّكتُ بإيماني بأنّ المسيح سيكون معنا. سألتُ القسيس عمّا إذا كان بإمكانه تقديم أيّ مساعدة لنا. وبالأمس، أحضرتْ لي السيّدة «إل» بشلكَين[1]، فاشتريتُ نصف رطل من الطحين. حماهم الله جميعًا فهم لطفاء جدًّا معنا.

ملاحظة: لم أتذوّق أيّ شيء من هذا القبيل على مدى السنوات السبع الماضية، فاستمتعتُ به، علمًا أنّني اشتقت كثيرًا إلى كوب من الشاي، فسعر السكّر مرتفع جدًّا ولا يمكننا شراءه.

Scanned with CamScanner

الثلاثاء

أرسلت لي السيّدة كارلسون إشارة مفادها أنّ بإمكاني الحصول على رطل من الطحين. الشكر للربّ. ولكن في المساء، حضر بعض الرعاع وأخذوا كرسيّيْن من أثاث منزلنا، فشعر الأولاد بالخوف، ونمنا باكرًا، وطلبتُ من الله أن يساعدني.

في الصباح، ذهبتُ على أمل الحصول على بعض المال من أجل استرجاع ما تمّ أخذه من الأثاث. سألتُ الدكتور ملحم، فطلب منّي الذهاب إلى خليفة شقيق الياس. وعندما فعلتُ، أعطيته خاتم الزواج كرهنٍ من أجل تأمين المبلغ اللازم وكلّي أمل بأنّ الربّ سيتدبّر الأمر، ولكنّ خليفة لم يُظهر أيّ اهتمام، فهو لا يتحدّث معي. ولكنّني حصلتُ على المبلغ لاحقًا وأصبح بإمكاني استرجاع الأشياء.

الجمعة العظيمة

لا شيء في المنزل يمكن أن نأكله، ولكنّ الله سيرسل لي شيئًا!

الفصح، الأحد، نيسان (أبريل) 1916

إنّه وقت صعب. ليس لدينا الكثير لنأكل في المنزل هذا اليوم.

ولكنّ الشكر للربّ. فقد عاد الياس في المساء وسيبقى أربعة أيّام في المنزل. كما وصلتنا رسالة من جاك مفادها أنّه إذا حصل على أوراقه من بعبدا، فسوف يتمّ أخذه إلى الجيش. لقد ذهب الياس بدوره إلى هناك. يا إلهي، كيف سنتدبّر أمورنا أثناء غيابهما؟ وحده الربّ يعرف، وهو سوف يساعدني بالتأكيد.

لقد غاب الياس في بيروت لمدّة اثني عشر يومًا، وكانت تلك الفترة بالنسبة إليّ بمثابة كفاح حقيقيّ من أجل الحصول على الطعام. الجميع

Scanned with CamScanner

كانوا يطلبون من الله أن تنتهي الحرب في القريب العاجل، فالكلّ جوعى، وخصوصًا الأطفال الذين لا يكفّون عن البكاء طلبًا للطعام. لقد بعتُ كلّ الملابس التي أعطاني إيّاها الأصدقاء الأعزّاء من أجل شراء الخبز، ولم استحمّ منذ شهرين لأنّ سعر الصابون كان غاليًا جدًّا، ولأنّ كلّ ما يتوفّر لنا من مال يجب تخصيصه من أجل شراء الخبز. وهكذا شعرنا بالطبع بتداعيات عدم النظافة، ولكنّ الجميع كانوا يعانون من هذا الأمر، فالنظافة تحتاج إلى صابون.

لا شكّ في أنّ الربّ سوف يساعدنا لأنّه الألطف بنا، ولا شكّ في أنّ لديه عِبرة كبيرة من وراء ما يجري، لأنّ الأغنياء يعانون من هذه المشاكل تمامًا مثلما يعاني منها الفقراء. الكثيرون كانوا يموتون جرّاء نقص الطعام. وقد تمّ إبعاد السيّد والسيّدة تالبرت، وكنتُ في غاية الحزن على ذلك، سيّما وأنّهم مسيحيّون حقيقيّون، وبذلوا قصارى جهدهم من أجل مساعدة الجميع. حماهم الربّ من كلّ شرّ. وها أنذا أصلّي دائمًا من أجلهم ومن أجل كلّ الأصدقاء المخلصين لكي يكونوا بأمان.

3 أيّار (مايو) 1916

وصلتني رسالة من الأولاد في بيروت مفادها أنّهم جميعًا بخير ويشعرون بالسعادة ويتناولون طعامًا جيّدًا. ليتمجّد اسم الله.

17 أيّار (مايو) 1916

ذهبنا إلى الكنيسة لرؤية السيّدة كارلسون. وقد كان الاجتماع جيّدًا واستمتعنا كثيرًا بالأناشيد والتراتيل. غنّينا «ليكن الربّ معك إلى أن نلتقي مجدّدًا»، و«بأمان بين ذراعَيْ المسيح»، وبعض التراتيل العربيّة. وبعد انتهاء الخدمة الروحية، حضرتْ امرأة فقيرة إلى المكان، فأعطتْها الآنسة

Scanned with CamScanner

لامرفيل رغيفًا من الخبز. ولو كانت الآنسة لامرفيل تعرف كم كنت أشعر بالجوع أنا والأولاد لكانت قد أعطتنا بعض الخبز أيضًا.

يا إلهي كم من الصعب أن نرى الأطفال حين يشعرون بالجوع!

عندما عدنا إلى المنزل، سألني الياس: «ماذا تبقّى لنا لنبيعه»؟ ففكّرتُ بقطعة قالت لي السيّدة قرطاس إنّ بإمكاني الحصول عليها من المدرسة. وهكذا اشترينا بعض الطحين، وخبزنا منه بعض الأرغفة. شكرًا للربّ.

18 أيّار (مايو) 1916

اليوم عيد ميلاد هيلين. لقد تمكّنتُ من الحصول على بيضة واحدة وأعددتُ منها قطعة من الحلوى وقدّمتها للصغار إلى جانب قطعة من الخبز لكلٍّ منهم، وكانوا سعداء بذلك. لقد أصبحتْ أجسادنا نحيلة جدًّا، ولكن مهما يكن من أمر، علينا أن نتحلّى بالصبر.

26 أيّار (مايو) 1916

أصابتني وعكة صحّيّة لمدّة أسبوع الأمر الذي حال دون تمكّني من الخروج لبيع القبّعات التي صنعتُها. ولكنّ السيّدة كارلسون أرسلت لي بعض الطحين واللحوم. يا إلهي كم كانت طيّبة معي.

6 حزيران (يونيو) 1916

اليوم عيد ميلادي، ولا يوجد طعام للفطور. لقد ذهب الياس إلى البلدة ولم يتمكّن من الحصول سوى على متليكَين[2]، كما أنّه لم يكن لدينا أيّ طعام للعشاء، فيما كان الأولاد يبكون باستمرار.

سارعتُ بالذهاب إلى منزل السيّدة حاوي. وعندما وصلتُ، كانوا يستعدّون لتناول العشاء، فقالت السيّدة حاوي: «إنّ اليوم هو عيد ميلاد

Scanned with CamScanner

السيّدة بو صادر، فتفضّلي لتتناولي العشاء معنا». شكرتُ الربّ على ذلك. وعندما قدّمت لي السيّدة حاوي بعض الحلوى، سألتُها: «هل يمكنني أخذها إلى المنزل»؟ فكانوا سعداء لسماع ذلك. وقد بعثُ قبّعة بثمانية متليكات، وأحضرتُ بعض الخبز. شكرًا للربّ على ذلك. ولكن إلى متى يا ترى سيستمرّ هذا الوضع؟ ليحمنا الله جميعًا.

الحلم

ينبغي عليّ الآن أن أخبركم عن حلم غريب راودني الليلة الماضية. لقد حلمتُ بأنّني كنت مع عدد من الأشخاص، أحدهم كان يبدو مثل الشيطان من دون أن ينتبه الآخرون إلى ذلك. كان يضلّل الناس ويطلب منهم القيام بما يريده. ولكن كانت هناك امرأة لم تشعر بالخوف منه، وقامت بما يحلو لها القيام به، وبكت من سكرة الموت. والآن جاء دوري. لقد جعلني أتعذّب وأشعر بألم شديد حتّى أنّني بكيتُ وطلبتُ من الربّ أن يساعدني. وقد طلبَ منّي الربّ أن أغنّي ترتيلة، ففعلتُ ذلك. وعندما غنّيتها، تخلّصتُ من الألم، وحضر الرجل إلى الغرفة وكأنّه ضوء مصباح، وبدا في غاية اللطف، حتّى أنّ الخوف تبدّد عند الآخرين، فظهروا لي كأنّهم قطع من نحاس وفضّة أُعطيت لي. وعندما استيقظتُ من الحلم، أدركتُ أنّ ثمّة درسًا تعلّمته للتوّ، مفاده أنّه ينبغي علينا أن نؤمن بالربّ وحده. فبمشيئته وحده سوف نحيا، وليس بمشيئة الناس.

29 حزيران (يونيو) 1916

والدة روزر(Roser) توفّيت. يا للحزن. لقد ذهبتْ بسلام إلى مثواها.

30 حزيران (يونيو)

بيرل حضرتْ اليوم، حماها الربّ. لقد شعرتُ بالسعادة لرؤيتها بخير

Scanned with CamScanner

بعد أن كنتُ شغوفة جدًّا لمعرفة الحال التي تبدو عليها. الشكر للربّ على عنايته بنا جميعًا في هذه الأوقات.

2 تمّوز (يوليو)

السيّد يوسف وأصدقاؤه حضروا اليوم. وقد اشتقتُ إلى السيّد حجار.

10 تمّوز (يوليو)

هاري وإلياس أصيبا بالملاريا ولكنّهما أصبحا في حال أفضل اليوم. الشكر للربّ. سعر الخبز وصل إلى بشلكين وربع البشلك. رجاءً أيّها الربّ أرسل لنا بعض الطحين. أحد جيراننا توفيّ وترك وراءه زوجته وعددًا من الأولاد. ليحمهم الله جميعًا.

3 آب (أغسطس)

اليوم عيد ميلاد جاك. الشكر لله على أنّه حضر إلى المنزل هذا المساء وكانت حاله جيّدة. يا إلهي كم كنت سعيدة بذلك.

18 آب (أغسطس) 1916

لقد وصل إلينا القمح اليوم والشكر للربّ. يا إلهي كم انتظرنا حدوث ذلك وكم صلّينا من أجله. كان سعر رطل الطحين قد وصل إلى مجيديّة[3]، وقبل قليل ذهب الياس من أجل الحصول عليه، من دون أن أعرف ما إذا كان السعر قد انخفض أم لا. يا إلهي كم كنّا نشعر بالجوع، فالليلة الماضية لم نتمكّن من الحصول سوى على رغيف صغير بسعر متليكّين لنا نحن الخمسة.. الشكر للربّ... الشكر للربّ.

Scanned with CamScanner

الفصل الخامس

الأحد 11 شباط (فبراير) 1917

الخوري اللطيف

استيقظتُ باكرًا بينما كنت أفكّر مليًّا وأصلّي للربّ لكي يساعدنا على تجاوز هذا اليوم بخير. لم يكن لدينا سوى القليل من البرغل لإعداد الطعام، فكيف يمكننا يا ترى تجاوز هذا اليوم؟ أسعار الطحين كانت ترتفع باطراد، وما كنّا نملكه من مال بالكاد يكفي لشراء رطل واحد لنا جميعًا نحن الخمسة لنسدّ به رمقنا طيلة النهار. شعرتُ بالتعاسة، ولكنّني أبقيتُ على إيماني بالله.

بعد ذلك ذهب الياس لإحضار الطحين، القليل منه فقط، ثمّ طلبتُ منه الذهاب إلى السيّدة حاوي لمعرفة ما إذا كان بإمكانها تزويدنا ببعض البرغل، فأرسلتْ لنا القليل، وصار بوسعنا أن نعدّ طعامًا للعشاء، ورحتُ أطلب من الله المساعدة.

ذهبتُ إلى الكنيسة بينما كان الأب رعد يبشّر باللغة العربيّة التي لا أفهمها، ولكنّ ابنته وجدت لي النصّ في النسخة الإنجليزيّة من الإنجيل التي أحملها معي، فرُحتُ أقرأ تلك الفقرة: «لماذا ينبغي علينا القلق حيال الطعام الذي نأكله والملابس التي نرتديها؟ وماذا عسانا أن نكون مقارنة مع قيمة العصفور الذي يحيطه الربّ بعنايته ويهبه كلّ ما يحتاج إليه لأنّه الأدرى بما يحتاج إليه.»

Scanned with CamScanner

شكرتُ الله على هذه الكلمات التي جعلتني أشعر كثيرًا بالراحة. الحمد لله على نعمة الإنجيل في هذه الأوقات الصعبة. فأنا متأكّدة من أنّه يرمي من خلال هذه الحرب إلى أن يجعلنا نؤمن به أكثر، وأعرف أنّه لن يجرّبنا بأكثر ممّا يمكننا تحمّله.

غادرتُ الكنيسة في ظلّ أجواء البرد القارس، نظرًا لأنّ الشتاء شديد القسوة في الجبال، وكنت أتمنّى لو كان بإمكاني الحصول على كوب من الشاي، خصوصًا وأنّني لا أملك أيًّا منه، تمامًا مثلما لا أملك الدبس لكي أجعله حلو المذاق لو توفّر، إذ إنّ السكّر لم يعد في متناول الناس في هذه الأيّام. وبينما كنت أسير في الشارع، تقابلتُ مع أحد الأصدقاء، فإذا به يقول لي: «تعالي معي لأعطيك قليلًا من الشاي، فما هو متوفّر لديّ يمكن أن يكفيك لصنع فنجان واحد». وقد شكرتُ الله بينما كنت أتابع سيري، فهو يسمع صلواتنا أينما كنّا وكيفما نكون.

الآن صرتُ بحاجة إلى متليك لكي أشتري القليل من الدبس. فكّرت بالذهاب إلى منزل إحدى السيّدات التي كان لها بذمّتي متليك واحد لكي أستدين منها متليكًا آخر، ولكنّها قالت لي إنّها لا تملك أيّ نقود. فصلّيتُ للربّ راجية أن يرسل لي بعض الدبس، ولم أكد أُنهي مناجاتي حتّى دخل الخوري الذي يسكن في الجوار إلى منزل السيّدة محضرًا معه نصف ليرة ومتليكًا، فأعطتني المتليك، فما كان منّي إلّا أن أخبرتُهما عن صلاتي من أجل هذا المتليك قبل قليل. يا إلهي كم أنت لطيف بنا.

لقد بذلتُ قصارى جهدي للتحدّث بالعربيّة عن كيفيّة استجابة الله لصلواتنا، وقلتُ للسيّدة التي كان والدها قد توفّيّ الأسبوع الماضي إنّه لا ينبغي عليها أن تحزن لأنّ والدها أصبح الآن في نعيم الربّ ويشعر بالسعادة أكثر منّا. وعندما أنهيتُ حديثي غادر الخوري، ثمّ غادرتُ بدوري بعد عدّة دقائق. وبينما كنت في طريق العودة إلى المنزل، سمعتُ

Scanned with CamScanner

صوتًا يناديني، فإذا بالخوري يقف أمام باب داره ليعطيني كميّة من البرغل كان قد وضعها في منديل. شكرتُ الخوري اللطيف على مساعدته، وشعرتُ بارتياح عظيم. يا إلهي كم أنّ الناس لطفاء هنا، فأنا لم أكن أعرف هذا الخوري، ولم يحدث أن تحدّثتُ معه من قبل. الحمد لله. فها أنذا الغريبة في هذه الأرض الغريبة، وها هوذا الله يرسل لي خيرة الناس من أجل مساعدتي. إنّ الأشوريّين أناس في غاية اللطف، ويحبّون الفقراء كثيرًا، وكم أتمنّى لو كان بإمكاني مساعدتهم.

الاثنين

ذهبتُ هذا الصباح لرؤية الآنسة مونتيس في منزل السيّدة حاوي. يا إلهي، هذه المسكينة العزيزة تموت ببطء، فصلّيتُ من أجل راحة نفسها لكي تصبح بين ذراعَيْ المسيح قريبًا.

قلم الرصاص

رأيتُ السيّدة حاوي وأخبرتُها بخصوص ما حدث معي يوم الأحد. فقالت لي: «دوّني ذلك في دفترك طالما أنّه يخطر في بالك الآن، فمن الممكن أن تنسيه لاحقًا». قلت لها إنّه لا يمكنني تدوين المزيد لأنّني لم أعد أملك قلم رصاص، فسارعتْ إلى إعطائي القلم الذي كانت تحمله بيدها. يا إلهي كم هي لطيفة، فحتّى أصغر الأشياء التي كنت أحتاجها كان الربّ يسهّل حصولي عليها.. الحمد لله.

الأحد – عيد الربّ

وفاة الآنسة مونتيس – لطف السيّدة قرطاس

فليساعدنا الربّ في التوجّه نحو الصواب في هذا اليوم، فلدي خمسة

Scanned with CamScanner

أوقيات من الطحين. كيف سينتهي هذا الأمر؟ كلّ الناس هنا يشعرون بالجوع، والكثير منهم ماتوا بسببه. لم يعد لدى الناس ما يكفيهم من قوّة لمواجهة الأوبئة. لقد حصلتُ على آخر نصف رطل أرسلَته لي مشكورة السيّدة أوليفر، ولولا مساعدات الأصدقاء الأعزّاء لما كنّا قد بقينا على قيد الحياة لغاية اليوم. ليحفظ الله صديقتي العزيزة السيّدة قرطاس في برمانا. لقد كانت قد أنجبت طفلة صغيرة خلال هذه الأوقات.. ليكافأهم الله على كلّ أعمال الخير التي قاموا بها من أجل الفقراء.

نحو خمسمئة شخص يموتون يوميًّا هنا. وقد جمَعت السيّدة العزيزة بعض الأموال وذهبتُ يوم أمس لرؤية الآنسة مونتيس.

كانت ترحل ببطء. كانت تريد الذهاب إلى ديار الأبديّة لرؤية المسيح. لقد قالت إنّها تشعر بتعب شديد: «تعال إليّ وحرّرني من هذا العبء الثقيل، وسوف أعطيك الراحة»، وراحت تردّد «سوف أعطيك الراحة» المرّة تلو الأخرى. أمّا أنا، فقد رحتُ أردّد مع السيّدة حاوي الترتيلة التي تقول: «هناك راحة، راحة حلوة». ليكن الله معها، فجميع أصدقائها ينتظرونها في ذلك المكان الجميل.

في تلك الأثناء ذهب الياس إلى بكفيا لمحاولة بيع بعض الأراضي. كان لديّ إبريق شاي ثمين جدًّا وعمره أكثر من مئة عام، وها نحن نعرضه للبيع أيضًا. لقد فكّرت بالتخلّي عن ذلك الإبريق الغالي لأنّنا كنّا نشعر بجوع شديد، علاوة على أنّني بعتُ تقريبًا كلّ ما أملك بما في ذلك ملابسي.

الكثير من اللصوص راحوا يقومون بعمليّات السطو. وقد تعرّض جيراننا لسرقة بعض الأموال من منزلهم، كما تعرّضت المخازن والمحلّات للسرقة أيضًا.

لقد وصلنا خبر حزين مفاده أنّ أميركا دخلت الحرب. ماذا سيحدث لنا يا ترى إذا ما رحل الجميع؟ لقد حاول السيّد باتش بجهد كبير الحصول على

Scanned with CamScanner

بعض الطحين من أجل الفقراء، ولكنّ الناس لم يعد لديهم ما يتقاسمونه. فحتّى الأغنياء أصبحوا يشعرون بالجوع. كم سيستمرّ هذا الوضع؟ الله وحده يعلم. وإذا لم نصل إلى النهاية في القريب العاجل، فإنّنا سنواجه حتمًا قدر الموت جوعًا نظرًا لأنّ الغذاء لم يعد متوفرًا في هذا الجزء من البلاد.

لقد انتظرنا أكثر من شهرين وصول أيّ سفينة للصليب الأحمر. ولكنّ الله عظيم، فهو سوف يرسلها عندما نصبح بأمسّ الحاجة إليها ويؤمّن لنا كلّ احتياجاتنا. لقد كنّا نشعر بالفعل بجوع شديد... ساعدنا يا الله.

وفاة الآنسة مونتيس

استيقظنا في الصباح الباكر، وطلبنا من الله أن يوجّهنا هذا النهار. فقد كان الياس يرغب في الذهاب إلى بيروت ولكنّنا لم نكن نملك مالًا. فحمّلت هاري رسالة إلى السيّدة كارلسون، كما أرسلتُ لها الياس مع ساعته، فقامت مشكورة بإعطائهما جنيهًا. الحمد لله.

بعد ذلك، توجّه الياس إلى بيروت من أجل بيع ما قايضناه بإبريق الشاي القديم من أشياء. وقد أحضرتُ له رغيفًا من الخبز، والرغيف هنا في هذه البلاد ليس سوى قطعة دائريّة صغيرة ولا يزن أكثر من ثلاث أونصات.

في تلك الأثناء أرسلت السيّدة حاوي تخبرنا بأنّ الآنسة مونتيس توفّيت. لقد قضت هذه المسكينة بهدوء بحضور عدد من الأصدقاء والأقارب. وعند الساعة الواحدة ظهرًا نُقلت جثّتها إلى الكنيسة الأميركيّة. وقد ألقى الأب رعد كلمة مؤثّرة تحدّث فيها عن الراحلة التي جاءت من بلاد بعيدة لتعيش في هذه البلاد الغربية، ثمّ أنشدنا بعض التراتيل، قبل أن يقوم الدكتور ويليام مع عدد من الرجال بنقل نعشها إلى المقبرة، حيث دُفنت

Scanned with CamScanner

إلى جانب الأطفال الذين لقوا حتفهم قبلها، والذين كانت قد أحبّتهم خلال حياتها كثيراً.

الشكر لله على إيماننا بأنّنا سنلتقي يومًا في ملكوته. لقد تحدّثتْ السيّدة حاوي بكلمات طيّبة عن الراحلة، وكيف أنّها تركتْ ديارها وجاءت لتعيش معها هنا في هذه البلاد، وكم كانت لطيفة، وكم أحبّت الأطفال. وممّا لا شكّ فيه هو أنّ الله سيكافأها على أفعالها في الجنّة.

الخميس 22 شباط (فبراير) 1917

استجابة لصلاة من أجل ربع جنيه

لم يعد الياس من بيروت بعد، ولم أكن أملك أيّ مبلغ من المال في هذا اليوم. استيقظتُ في الصباح الباكر وذهبتُ على الفور إلى السيّدة حاوي من أجل طلب المساعدة، ولكنّها اعتذرت، وكنت متأكّدة من أنّها لو كانت قادرة على مدّ يد العون لما تردّدت أبدًا. لقد قدّمت لي طعام الفطور، ولكنّني كنت أفكّر بالأولاد الذين لم يتناولوا الليلة الماضية سوى بعض الأعشاب المغليّة التي لم تكن كافية لكي يسدّوا رمقهم بها، ما حال دون تمكّنهم من النوم. وكانت السيّدة حاوي قد وعدتني بأنّها ستحاول تأمين بعض «الكريما» في وقت لاحق، ثمّ ما لبثت أن وفت بوعدها، فتناولنا القليل منها، وخلدنا إلى النوم. وشكرًا لله على أنّه ساعدنا على النوم لكي نتمكّن من نسيان مصائبنا.

في الصباح، وقبل أن أغادر المنزل للبحث عمّا يمكن إحضاره، قسّمت على الأولاد حصصًا من برتقالة وخرجتُ.

ذهبتُ إلى كلّ مكان ممكن، ولكنّ أحدًا لم يقبل بأن يعطيني أيّ شيء من دون مال. ماذا يمكن أن أفعل؟ كنت أشعر بالإحراج الشديد لدى قيامي بطلب أيّ شيء، ولكن كان ينبغي عليّ تجاوز هذا الحرج من

Scanned with CamScanner

أجل الأولاد. وما إن سمعتُ أنّ البروفسور باتش موجود عند السيّدة كارسون حتّى سارعتُ إلى كتابة رسالة طلبتُ فيها منه إقراضي ربع جنيه، فسارع مشكورًا إلى إرساله لي، كما أرسلتْ لي السيّدة باتش بعض الطحين. ليحفظهما الربّ، والحمد لله على كلّ شيء. فقد توفّرت لي جميع احتياجاتي لهذا اليوم.

الاختلافات عند الأطفال

كان هناك منزلان مجاوران لمنزلنا تسكن في إحداهما عائلة مؤلّفة من زوج وزوجة وأربعة أولاد. وقد ذهبتُ لزيارتهم في أحد الأيّام، فعرفتُ أنّ ثلاثة من الأولاد انتقلوا للعيش عند بعض الأصدقاء ممّن يمكنهم توفير الطعام لهم في برمانا، وأنّ أمّهم ذهبت لزيارتهم هناك. ولدى وصولي، كان الابن الأكبر البالغ من العمر حوالي ستّة عشر عامًا يتناول وجبة من اللحوم بينما كان والده يترجّاه لإعطائه القليل من تلك الوجبة. لقد بدا الوالد هزيلًا جدًّا، ولم يدرّ ذلك عطف الابن الذي ظلّ يرفض طلب والده، فما كان منّي إلّا أن تدخّلت لأطلب بلطف من الفتى إطعام والده، فبادر بعصبيّة إلى إعطائه ثلاث قطع صغيرة. وعندما قلتُ له إنّ الله سيجازينا على أفعالنا، سارع إلى القول إنّه لا يؤمن بالله. فطلبتُ من الربّ أن يساعدهم دائمًا في الحصول على الطعام.

ذهبتُ إلى المنزل الآخر في الجوار، وكانت تعيش فيه الأمّ مع ستّة من أبنائها بعد أن كان زوجها قد توفيّ قبل ستّ سنوات. كان منزلًا مختلفًا. الجميع هناك كانوا يشعرون بالجوع ولم يكن لديهم أيّ شيء للأكل في ذلك الصباح، فقدّمتُ للابن الأكبر البالغ من العمر سبعة عشر عامًا رغيفًا من الخبز، فما كان من الأمّ إلّا أن سارعت إلى توزيع الرغيف على أبنائها شاكرة الربّ على ذلك. لقد شعر الله بهذه الأرملة وكان عطوفًا

Scanned with CamScanner

معها. لقد رزقها بأولاد لطفاء، وكم تمنّيتُ لو أنّني كنت أملك بعض المال لمساعدتهم، وحتّى بالقليل، ولكن لم يكن في وسعي سوى الصلاة من أجلهم جميعًا.

استجابة للصلاة: خمسة شلنات

بينما كنت لا أزال طفلة، كنت ذات يوم أحتاج وأمّي إلى خمسة شلنات، وكان ينبغي علينا الحصول عليها في الصباح. كنّا نملك متجرًا صغيرًا، ولكنّنا لم نتمكن سوى من بيع القليل نظرًا لأنّ الطقس خلال ذلك النهار كان ماطرًا. قلتُ لأمّي إنّني سأذهب لأطلب المبلغ من إديث، إحدى صديقاتي الصغيرات، فهي سوف تعطيني إيّاه. وبينما كنت ماضية في طريقي، طلبتُ من الله أن يهبني خمسة شلنات. لقد كنت متأكّدة من أنّ إديث سوف تعطيني المبلغ، وعندما طلبتُه منها قالت لي إنّها آسفة جدًّا لأنّها كانت قد أعطت أمّها قبل قليل آخر خمسة شلنات لديها، مؤكّدة لي أنّها لا تملك أيّ مال. ففكّرتُ كم أنّ الأمر غريب، ولكنّني واظبتُ على الإيمان بالله. ولدى عودتي إلى المنزل، رحت أفكّر بالطريقة التي يمكن أن أوفّر المال من خلالها؟ لم يكن هناك أيّ شخص آخر يمكنني الطلب منه، كما أنّ المطر لا يزال يهطل بشدّة ما يعني أنّ لا أحد سوف يأتي إلى المتجر خلال المساء، فماذا عساي أن أفعل؟

ما حدث لاحقًا هو أنّه بمجرّد دخولي إلى المتجر، أخبرتني أمّي عن فتاتين جاءتا لشراء بعض الأغراض، وعندما قمنا بعدّ المال، وجدنا شلنات وبعض البنسات، وكان المبلغ خمسة شلنات دون زيادة أو نقصان، فعرفتُ أنّ ذلك كان استجابة لصلاتي. الحمد لله دائمًا، فعندما نؤمن به فإنّه سوف يهبنا ما نشاء. (حصلت هذه الواقعة في نيوزيلندا)

Scanned with CamScanner

الثلوج

في إحدى الليالي، نهض زوجي الذي كان يعاني منذ خمسة عشر عامًا من القرحة في المعدة، وسارع إلى إيقاظي من النوم قائلًا إنّه يشعر بالمرض الشديد. ذهبتُ على الفور لإحضار الطبيب الذي كان يسكن في الجوار. كان الجوّ في تلك الليلة ملبّدًا. وقال الطبيب إنّ زوجي يحتاج إلى قطع من الثلج فورًا. ولكن كيف يمكننا الحصول على الثلج في هذا الوقت خصوصًا وأنّ قمم الجبال تبعد عنّا ما بين ستّين وسبعين ميلًا، ولا أحد يمكنه الصعود إلى هناك عند منتصف الليل؟ طلبتُ المساعدة من الله، وبينما كنّا ننتظر، راحت السماء تمطر بغزارة، ثمّ سمعنا أصوات تساقط حبّات كبيرة من البَرَد، فطلب مني الطبيب استخدام الرفش لإحضار ما يمكن جمعه من الثلوج داخل وعاء صغير، ففعلتُ على الفور، ثمّ قال الطبيب: «هذه الكميّة تكفي لهذه الليلة، ولكن حاولي إحضار المزيد في الصباح، وحتّى ذلك الحين أعطيه القليل من الثلج كلّ نصف ساعة». طلبتُ من الله أن يساعدني في الصباح، خصوصًا أنّ أيّ شخص لن يقبل بالصعود كلّ هذه المسافة الطويلة إلى القمم من دون الحصول على مقابل ماليّ، وأنا لم أكن أملك الكثير من المال.

في الصباح كان الطقس جيّدًا، ولكنّ ما حصل لاحقًا هو أنّني وجدتُ إحدى الحقائب الجلديّة القديمة التي كنت أستخدمُها خلال فصل الصيف من أجل درء أشعّة الشمس عن الباب الخارجيّ وقد كانت مملوّة منذ الليلة الماضية بالثلوج. وعندما حملتُها بسعادة إلى الداخل، سألني زوجي: «من أين حصلت على الثلج»؟ فأجبتُه بالقول: «لقد أرسله الله لنا». يا إلهي كم هو جميل أن يغمرنا الله برحمته. فغالبًا ما كان الياس يسألني منذ انتهاء فصل الصيف لماذا أترك هذه

Scanned with CamScanner

الحقيبة طالما أنّ الشمس لا تشرق كثيرًا خلال الخريف والشتاء؟ وقد حمدتُ الله لأنّني تركتها في مكانها، وشكرته على عنايته بنا.

عندما حضر الطبيب باكرًا، سألني بلهفة عن كيفيّة تمكّني من إحضار الثلوج بهذه السرعة، خصوصًا أنّ الصعود إلى القمم يحتاج إلى نهار كامل؟ فأخبرتُه القصّة، فشكر الله معنا، وأثنى على قوّة إيماني.

أليس هذا أمرًا رائعًا ودليلًا كافيًا على ما يمكن أن يفعله الله من أجلنا؟ الحمد لله على حبّه ورعايته لنا.

Scanned with CamScanner

الفصل السادس

عناية الله بالسيّد ن. تالبرت

سأخبركم الآن قصّة عن عناية الله بإحدى صديقاتي العزيزات، وهذه القصّة السعيدة حدثت خلال الاضطرابات عام 1916. العديد من الأصدقاء كانوا قد عادوا إلى بلادهم، ولكنّ هذه الصديقة كان لديها زوج وثلاثة أبناء: صبيان وبنت صغيرة. كان زوجها يستعدّ للذهاب في مهمّة سرّيّة لم يكن من المسموح لنا الاطّلاع عليها. فماذا عساها أن تفعل؟ لقد قرّرتْ ترك اثنين من أبنائها (صبي والبنت) عند بعض الأصدقاء الأعزّاء، وأخذتْ الصبي الصغير الذي يبلغ من العمر سنتين معها، وذهبتْ برفقة زوجها. وقد شعرنا بالأسف الشديد حيال هذا الأمر، ورحنا نصلّي إلى الله لكي يحفظهم.

استلمنا بعد فترة رسالة من هذه الصديقة أبلغتنا فيها أنّهم بعدما قطعوا مسافة طويلة في رحلتهم، توقّف القطار بهم بشكل مفاجىء في منطقة خالية من السكّان، فما كان منهم إلّا أن خرجوا للنظر حولهم، حيث بدت الأماكن الآهلة بالسكّان تبعد عنهم أميالًا. وبينما كانوا يفكّرون بما يمكنهم فعله، تحرّك القطار بشكل مفاجىء أيضًا، وغادر من دونهم، الأمر الذي وضعهم في مواجهة خطر الموت من الجوع والعطش. ولكنّهم سرعان ما لمحوا سيّارة تمرّ في المكان، فأبلغوا سائقها عن قصّتهم، فما كان منه إلّا أن بادر مشكورًا إلى الطلب منهم الصعود، حيث سارع إلى

Scanned with CamScanner

اللحاق بالقطار، فصعدوا إليه مجدّدًا، وعادوا ليكملون رحلتهم بأمان. ألا تعتقدون أنّ في ذلك استجابة من الله لصلوات الأصدقاء؟ الجواب: طبعًا وبكلّ تأكيد. فهذه هي عنايته ولطفه بنا، حيث مرّت السيّارة بمشيئته في اللحظة المناسبة عندما تُركت صديقتي مع زوجها وطفلها الصغير لوحدهم. نعم لوحدهم، ما عدا عيون الله التي تراقبنا وترعانا.

يوم جميل من آذار

إنّه يوم جميل أزهرت فيه أشجار اللوز. السيّدة حاوي أخذت ماري وهاري، وأمضينا فترة الصباح هناك، وبينما راحت السيّدة حاوي ترسم إحدى لوحاتها، كان الأولاد يستمتعون بأشعّة الشمس الجميلة. لقد رسمت لي جزءًا من حديقتها، فتقدّمتُ منها بالشكر الجزيل، ليس على اللوحة وحدها، وإنّما على كلّ ما كانت تحيطنا به، أنا وزوجي والأولاد، من لطف ورعاية، وغيرها من الأمور التي كانت تضيء نور الأمل في حياتي، وتساعدني على المضيّ قدمًا على خطى المسيح. فشكرًا يا ربّ لأنّك أرسلتَ لنا ابنك لكي يرينا الطريق ويضيء النور في حياة من هم حولنا.

أسعار المواد الغذائيّة

سعر الطحين اليوم ثلاث أوقيّات بربع ليرة. وتعادل قيمة الورقة ثمانية بشلكات، ما يعني أنّ السعر ثلاثة بشلكات ونصف البشلك، وهو ما يعادل بالتالي ربع ليرة تركيّة، أي خمسة عشر شلنًا بالعملة الإنجليزيّة.

لا شكّ في أنّ الكثيرين سوف يتضوّرون جوعًا في هذا اليوم. لقد كنّا بخير لأنّنا أكلنا قشور البرتقال وبعض الخبز المصنوع من النخالة المخلوطة مع القليل من الطحين. ساعدنا يا الله إذا لم تنتهِ هذه المحنة قريبًا، فأنت وحدك القادر على اللطف بنا.

Scanned with CamScanner

المساعدة من الربّ

كانت هناك امرأة فقيرة لطالما تمنّت على الدوام فعل الخير في العالم، وفكّرت بما إذا كان بإمكانها البدء بإنشاء مستشفى صغير لإسعاف الأطفال والنساء، أو القيام بأيّ شيء من أجل المساعدة. فقد كانت مؤمنة جدًّا بالله، وكانت ترغب في العمل لاسمه، ولكنّ فقرها جعلها تضطرّ إلى طلب العون والمساعدة من الأصدقاء الأعزّاء. كان الجميع يرأف بها ويعاملها بشكل جيّد، ولكنّها غالبًا ما كانت ترغب في أن تقدّم المساعدة للآخرين.

لقد صلّت كثيرًا للربّ طالبة منه أن يضعها في موقف يخولّها تقديم المساعدة إلى الناس وليس طلب المساعدة منهم.

في أحد الأيّام، شعرتْ بأنّ ابنتها بدأت بالتحسّن بعد معاناتها من المرض لفترة طويلة، ولكنّ الطفلة كانت لا تزال ضعيفة جدًّا، ولم يكن بإمكانها الحصول على الطعام الذي ترغب به، فما كان من الأمّ إلّا أن سارعت بالذهاب إلى المنزل الذي كانت ابنتها الكبرى بيرل تعتني فيه بطفلين صغيرين. وقد حدث ذلك في الوقت الذي كان تتوفّر فيه كميّات قليلة من مادة السكّر بأسعار غالية. كان أحد الطفلين يأكل صحنًا من السميد المصنوع مع الحليب والسكّر، ولدى انتهائه من الأكل، ترك بعض البقايا في الصحن لأنّه لم يكن جائعًا جدًّا، فبادرتْ الأمّ بالسؤال عمّا إذا كان بإمكانها أخذ هذه البقايا لإطعام ابنتها الصغيرة هيلين التي لم تتناول سوى الحليب على مدى ثلاثة أسابيع، فوافق الولد اللطيف على ذلك، وأخذتْ الأمّ ما تبقّى في الصحن إلى المنزل. وقد استمتعتْ الطفلة المريضة كثيرًا بتناول هذه الوجبة، وبدأتْ تشعر بالتحسّن أكثر.

في اليوم التالي قالت الطفلة هيلين لأمّها: «آه يا أمّي.. أريد تناول المزيد من هذا الطعام اللذيذ مع السكّر». فشعرتْ الأمّ الفقيرة بالخجل إذا ما طلبتْ مرّة أخرى، ولكنّها بعثتْ رسالة قصيرة إلى والدة ذلك الطفل، فما

Scanned with CamScanner

كان منها إلّا أن سارعتْ بإرسال القليل من تلك الوجبة اللذيذة. وقد شعرتْ الطفلة بالسعادة، بينما شكرتْ أمّها الله. ولكن في اليوم التالي، جاءت الابنة الكبرى إلى المنزل لزيارة أهلها، وقالت لأمّها: «رجاءً يا أمّي أن لا ترسلي مجدّدًا في طلب المزيد من السكّر. إنّهم يحبّونك كثيرًا، ولكنّك تطلبين المساعدة باستمرار».

يا إلهي.. هل يدرك الأغنياء يا ترى كم من الصعب على الفقراء أن يطلبوا منهم أيّ شيء؟ ولكن مهما يكن من أمر، فإنّ الله وحده يرأف بالناس.

لقد صلّت هذه السيّدة الفقيرة كثيرًا لكي لا تغضب تلك العائلة الغنيّة منها لأنّها طلبت المزيد من السكّر، وتمنّت لو أنّهم يشعرون كم كان من الصعب عليها القيام بذلك. لقد كان الجميع يعاملها بلطف لأنّهم يعرفون قلبها الطيّب، خصوصًا وأنّها فعلت كلّ ما في وسعها من أجل الوصول إلى وضع يؤهّلها لتقديم المساعدة إلى الناس عوضًا عن أن تتلقّى المساعدة منهم، ولكنّها لم تتمكّن من ذلك. وفي إحدى المرّات، راحت تتحدّث بأسف إلى إحدى صديقاتها عن أمنيتها التي لم تتمكّن من تحقيقها، فقالت لها الصديقة: «آه يا سيّدة ب. لقد ساعدتيني كثيرًا من خلال نظرتك المشرقة للأمور وأحاديثك حول عناية الله بك». وقد شعرتْ المرأة الفقيرة بالسعادة عندما فكّرتْ بأنّها تمكّنت من تقديم المساعدة في نهاية المطاف.

Scanned with CamScanner

الفصل السابع

الصديق وقت الضيق هو صديق بالفعل

طلبتْ منّي إحدى النساء ذات مرّة أن أقوم بطهو بعض الطعام للفقراء، فذهبتُ وأنجزتُ العمل، ثمّ طلبتُ الحصول على القليل ممّا طهوتُ من أجل أولادي.

سألتني السيّدة: «هل تناولتِ طعام الفطور؟" أجبتها بالنفي. قالت لي: "إذن أحضري أولادك وسوف أقدّم لكم بعض الشاي". وعندما حضرنا، أعطتني وعاءً كبيراً ورغيفين من الخبز، فقسّمتهما على الأولاد.

شكرتُ الله لأنّه أرسل لنا الطعام في هذا اليوم بعدما أوحى لي بأن أذهب لكي أقوم بشيء جيّد من أجل الفقراء من أمثالي عند هذه السيّدة.

دعونا نتعلّم من هذا الأمر درسًا مفاده أنّه عندما يرسل لنا الله من أجل القيام بأيّ أمر فما علينا سوى القيام به. فلو لم أذهب لفعل الخير عن طريق القيام بطهو الطعام للفقراء لما كنّا بدورنا قد حصلنا على الطعام.

ما أروع التوجّه إلى الله. فما حصل يثبت أنّ الله يستجيب لصلواتنا، وما علينا سوى الصلاة له بكلّ ثقة وإيمان من أجل مساعدتنا، وليس طلب المساعدة وانتظار الحصول عليها لكي نقرّر ما إذا كنّا نؤمن به أم لا. يجب علينا دائمًا أن نؤمن ونثق به.

Scanned with CamScanner

في إحدى المرّات، غاب زوجي عن المنزل لمدّة أربعة أو خمسة أيّام وكنّا ننتظر عودته في كلّ مساء. خلال تلك المدّة، كنت أتلقّى المساعدة من أصدقائي نظرًا لعدم وجود غيرهم لتقديم المساعدة لي. طلبتُ من الله أن يساعدني، ولدى عودتي إلى المنزل، جاءت إلينا فتاة صغيرة وقالت لي: "أمّي تريدك.. تعالي معي على الفور". فكّرتُ بأنّنا لم نتناول طعام الفطور وأنّ الله أرسل إليّ إشارة لكي أذهب، فذهبتُ مسرعة، وعندما وصلت، قالت لي السيّدة: "ليس لدينا طعام لهذا النهار، فهل يمكنك أن تأخذي هذه القطعة المزخرفة إلى السيّدة H لكي تعرضيها عليها للبيع"؟ أجبتُها بالإيجاب، وتوجّهتُ على الفور إلى منزل تلك السيّدة، فوافقتْ على شراء القطعة بثلاثة بشلكات. وعلى الرغم من أنّ صاحبة القطعة المعروضة للبيع كانت تطالب بستّة بشلكات وليس بثلاثة، فقد فكّرتُ بأولادها الجوعى، فما كان منّي إلّا أن أخذتُ زمام المبادرة ووافقتُ على البيع بثلاثة بشلكات. ولن أنسى أنّ تلك السيّدة اللطيفة فرحت كثيراً حينما حملتُ إليها هذا المبلغ وعدتُ به إلى منزلها، فسارعتْ إلى إعطائي نصفه، فشكرتُها من كلّ قلبي على ذلك، وسارعتُ بدوري إلى شراء بعض الطعام لأولادي الذين كانوا يتضوّرون جوعًا. لقد كان طعامًا شهيًّا بحقّ، خصوصًا وأنّنا لم نكن قد تناولنا طعامًا ساخنًا منذ مدّة طويلة. يا ربّ إحفظ أصحاب تلك القلوب الطيّبة التي لا تتردّد أبدًا في تقديم عطاءاتها حتّى في أصعب الظروف. يا إلهي ما أرحمك.

الكتاب المفقود

ذهبتُ في أحد الأيّام إلى منزل السيّدة حاوي لكي أطلب منها دفتراً يمكنني أن أكتب عليه. فصعدتْ إلى الطابق العلويّ من أجل إحضاره، وعندما عادت، كانت سمات السعادة واضحة على وجهها، وسارعتْ إلى

Scanned with CamScanner

إخباري بأنّها كانت قد أضاعت كتابًا قيّمًا وبذلت قصارى جهدها للعثور عليه طيلة الشهرين الماضيين من دون أن تفلح في ذلك، إلى أن عثرت عليه للتوّ بمحض الصدفة بينما كانت تحضر لي الدفتر الذي طلبته منها.

خلاصة هذه القصة هي أنّه عندما يطلب منك أحدهم فعل الخير، فما عليك سوى فعله. فلو لم تقرّر السيّدة حاوي مشكورة فعل الخير معي وإحضار الدفتر الذي طلبته منها لما كانت قد عثرت على كتابها القيّم والمفقود منذ مدّة طويلة.

آذار (مارس) 1917

كتاب الحلويات

ضاق صدري في أحد الأيّام بسبب السعال الشديد الذي كنت أعاني منه، فأحضرتْ لي السيّدة حاوي بعض المربّى المصنوع من خليط من الدبس مع النعناع، ما جعلني أشعر بالتحسّن على الفور. هذه هي محبّة الله. لقد أرسل لي حتّى بعض الحلويات من أجل الحدّ من نوبات سعالي. يا إلهي كم ينبغي علينا أن نشعر بالسعادة مع رسُل هذه المحبّة.

نهارنا السعيد

في أحد أيّام بداية فصل الربيع، دخل فتى صغير إلى منزلنا ليخبرني بأنّ هناك سيّدتين إنجليزيّتين متوقّفتان داخل عربة في الشارع، فخرجتُ على الفور، وإذا بي أرى كلًّا من الآنسة كومينتون والسيّدة كلارك. يا إلهي كم كنت سعيدة برؤيتهما.

لقد بادرتا بالقول: "لن ندخل إلى المنزل، أحضري الأولاد لنأخذهم معنا، ويمكنك اللحاق بنا متى تشائين، ولا تحضري أيّ شيء معك، فلدينا كلّ شيء". ثمّ وضعتْ الآنسة كومينتون طفلتي هيلين في حضنها بينما جلس

Scanned with CamScanner

هاري في المقدّمة لكي يتمكّن من رؤية الأحصنة التي تجرّ العربة، وبدا عليه أنّه يشعر بالسعادة مثل ملك حقيقيّ.

كانت الحديقة تبعد حوالي ميل واحد عن وسط البلدة، فوصلتُ إلى هناك بعد فترة، ثمّ ما لبثنا أن أشعلنا بعض الحطب ليبدأ بعد قليل الماء المسكوب في الإبريق بالغليان. لقد كانت الآنسة كومينتون والسيّدة كلارك قد عادتا من السفر، وأحضرتا معهما سلّة كبيرة فيها الكثير من الأغراض الجميلة: خبز، كعك، شاي، حليب، سكّر، سردين، بيض، لحوم، زبدة، وكلّ شيء من الطعام اللذيذ. وقد وجدنا في الحديقة صخرة كبيرة مسطّحة فاستخدمناها كمائدة للطعام.

لقد شعر الأولاد بسعادة بالغة، واستمتعنا جميعًا بهذه النزهة الجميلة تحت أشعّة الشمس الدافئة، وبكلّ ما كان داخل السلّة من مأكولات لذيذة. ليحمي الله الآنسة كومينتون والسيّدة كلارك على هذه السعادة التي أضفتاها على حياتنا. وأعتقد أنّهما كانتا تشعران بنفس السعادة مثلنا. فكم من الرائع أن يتحدّث الواحد منّا عن الأشياء الجميلة في الأزمنة الصعبة. فهذه الأمور تبقى دائمًا بارقة أمل تضيء لنا حياتنا.

سليم يستلم أموالًا من أميركا

كان لدينا أحد الجيران، وهو أرمل يعيش مع أولاده الستّة الذين أصبحت أجسادهم نحيلة جدًّا بسبب قلّة الغذاء. وذات نهار أحد، وبعد مرور نحو أسبوع كامل على وعكة صحّية ألمّت بي وأجبرتني على البقاء في الفراش، جاء سليم لرؤيتي، وأخبرني بأنّه لم يتناول في ذلك النهار سوى "كمشة" من الدقيق المغليّ التي حصل عليها من الكنيسة. قلتُ له إنّه ينبغي علينا أن نصلّي للربّ الذي وعدنا بالاستجابة لصلواتنا. وبالفعل، فقد بدأنا بالصلاة، ثمّ غادر سليم إلى منزله، قبل أن يعود في اليوم التالي

Scanned with CamScanner

حاملًا على وجهه فرحة ما بعدها فرحة. فقد استجاب الله حقًّا لصلواتنا، واستلم سليم رسالة من شقيقه في أميركا يخبره فيها أنّه قام بتحويل بعض الأموال إليه. الحمد لله. لقد ذهب سليم مع أمّه في ذلك النهار إلى بيروت من أجل استلام الأموال.

حفل زفاف عربيّ

لقد كان لي شرف حضور حفل زفاف عربيّ وكان عرسًا جميلًا بالفعل. ذهبتُ برفقة السيّدة حاوي، وعندما وصلنا، كانت هناك فتيات صغيرات وإشبينة العروس التي يفترض أن تكون امرأة متزوّجة. كانوا يضعون الإكليل على رأس العروس التي بدت رائعة الجمال بثوبها الفاتح المزهّر وخمارها الشفّاف. ووفقًا للتقاليد، فإنّ على البنات أن يشرفن على العروس أثناء ارتداء ملابسها، بينما يشرف أصدقاء الإشبين بدورهم على ملابس العريس.

كانت العروس لا تزال مع الفتيات الصغيرات داخل غرفة خاصّة، قبل أن يصل الخوري مع العريس وأصدقائه الشبّان. وقد بدا العريس رائعًا ببدلته السوداء والوردة البيضاء التي وضعها على صدره. وبعد الترحيب بالضيوف وتقديم بعض المشروبات المنعشة، صعد الخوري إلى غرفة العروس ليعود بعد قليل ممسكًا بيدها ويقدّمها إلى العريس، فجلست إلى جانبه. كان العريس وإشبينه على جهة اليمين، بينما كانت العروس وإشبينتها على جهة اليسار، وكانت الشموع محمولة بأيدي الحاضرين ومضاءة في مختلف أنحاء المكان. بعد ذلك بدأ الخوري بتلاوة نصّ عقد القران الذي لم أفهم منه شيئًا لأنّه كان باللغة العربيّة، ولكنّني كنت سعيدة لرؤية الفرح على وجوه الجميع. وسرعان ما تناول الخوري خاتمًا مرصّعًا بالياقوت وقام بتمريره ليلامس جبين العريس ومن ثمّ جبين العروس ستّ مرّات على التوالي، قبل أن يقرأ اسميهما، ويضع على رأس كلّ منهما إكليلًا من الأزهار،

Scanned with CamScanner

ومن ثمّ يضع الخاتم في إصبع العروس، ويمسك بكأس صغير من النبيذ ويطلب منهما تناول ثلاث جرعات منه. بعد ذلك أخذ الخوري العروسين من أيديهما وراح يلفّ بهما حول المائدة ستّ مرّات وسط مشاعر سعادة كانت تعمّ الجميع. وما إن انتهى من قراءة المزيد من التراتيل حتّى أمسك العريس بيد العروس وتوجّها للجلوس على المنصّة التي صمّمت لهما من أجل هذه المناسبة السعيدة. وبعد مرور بعض الوقت وتناول القهوة والمشروبات المنعشة، تقدّمتُ من العروسين لأبارك لهما بزواجهما السعيد، متمنّية لهما السعادة وبركة الله ورعايته في منزلهما الجديد.

6 آذار (مارس)

دعونا ننسى

الطحين اليوم بأربع أوقيّات بربع ليرة، وقطعة الصابون ببشلك وأربعة متليكات، والفقراء يشعرون بالجوع وعدم النظافة. ليس لديهم المال لشراء الخبز، فكيف يمكنهم شراء الصابون؟

ذهب الدكتور ميلتيمي (Miltimy) لعيادة مرضاه مغلّفًا معصميه وقدميه بأشياء جلديّة بيضاء بسبب تكاثر القمل الذي تردّد أنّه يسبّب الأوبئة. في تلك الأيّام لم نكن نجرؤ على طلب أيّ شيء من جيراننا لأنّ أحدًا لا يعرف ما إذا كانوا مصابين «بالقمل» أم لا. لقد أصابنا القمل ذات مرّة، ولكنّني تخلّصت منه بسرعة، فعندما لم أكن قادرة على الحصول على الصابون، كنت أضع رماد الحطب في الماء وأتركه طوال الليل، ثمّ أقوم بغلي الملابس لغسلها فيه. صحيح أنّها كانت تفقد ألوانها الأصليّة، ولكن ماذا عسانا أن نفعل؟ أسعار الصابون مرتفعة جدًّا، والمراويل الزرقاء أصبحت من الماضي، وعود الثقاب أصبح من الكماليّات خصوصًا وأنّنا لم نكن نحصل سوى على علبة كبريت واحدة في السنة.

Scanned with CamScanner

كنّا نستخدم الوسائل البدائيّة لإشعال النار، فنضع بعض القشّ على قطعة صغيرة من القطن، ثمّ نبدأ بحكّ قطعة معدنيّة مع قطعة حجريّة لتنبعث منها الشرارات وتشعل لنا النار في القشّ والقطن. وغالبًا ما كان جيراننا يسارعون إلى أخذ شعلة صغيرة عندما يرون الدخان متصاعدًا. أمّا الأغنياء، فإنّهم كانوا لا يزالون يشترون الكبريت علمًا أنّ سعر العلبة الواحدة كان قد ارتفع من بشلك إلى متليك.

في الليل، لم يكن الضوء يهمّنا كثيراً بقدر ما كان يهمّنا إشعال موقد صغير لفترة قصيرة من الوقت، خصوصًا وأنّنا كنّا نخلد إلى النوم باكرًا. فالنوم وحده هو الوسيلة الأفضل لمواجهة البرد والجوع. لم أكن أعرف حقًّا كيف كنّا نتدبّر أمرنا من يوم إلى يوم، ولكنّنا كنّا في الواقع مثل العصافير، والله وحده كان يتدبّر أمرنا يوميًّا.

Scanned with CamScanner

الفصل الثامن

السيّدة المدعوّة إلى المنزل الكائن على التلّة

أريد أن أخبركم عن السيّدة ذات الوجه الملائكيّ. فهناك سيّدة تسكن في منزل على التلّة، وظلّت تعاني من المرض على مدى خمسة عشر أو ستّة عشر عامًا. تعرّفتُ عليها منذ سبعة أعوام، وفي كلّ مرّة رأيتها فيها لم تكن الابتسامة تفارق وجهها. لقد جعلتني أشعر بأنّ المسيح يقف دائمًا إلى جانبها. فهي غالبًا ما كانت تبدو في غاية الهدوء والسعادة، على الرغم من أنّها تجلس على كرسيّ متحرك، وليست قادرة على النهوض، ويداها متشابكتان لدرجة أنّها بالكاد تستطيع كتابة اسمها بصعوبة بالغة، علاوة على أنّها لا تستطيع حمل فنجان الشاي أو إيصال لقمة من الطعام إلى شفتيها. ولكنّ الله أعطاها شقيقة طيّبة تعاملها دائمًا بلطف وتعتني بها باستمرار.

يجب أن أخبركم عن مشاكل تلك السيّدة العزيزة حسبما سمعتُه منها ومن شقيقتها الطيّبة. لقد جاءت إلى هذه البلاد مع زوجها الدكتور س، قبل سنوات طويلة من الزمان، حيث راحا يعاملان الناس بلطف، ويقومان بمعالجتهم، ويعطيانهم الأدوية، ويفعلان كلّ ما هو جيّد من أجلهم. كان لديهم ابن يدعى جيمس أرسلاه للدراسة في إنجلترا، ثمّ عاد إلى هنا بينما كان في العشرين من عمره، وكانا في غاية السعادة لرؤيته مجدّدًا. بعد

Scanned with CamScanner

ذلك ذهب جيمس إلى بيروت لزيارة عمّه، حيث أصيب بالجدري هناك، وتوفيّ بعد عدّة أيّام. يا إلهي كم كان حزنهما شديدًا. لقد عرفتُ ورأيتُ الدكتور س.، ولكنّه كان شبه أعمى بينما كانت السيّدة س. مشلولة.

نحن غالبًا ما نتساءل باستغراب: لماذا يا ترى ترك الله هذين العزيزين وحيدين مجدّدًا، باستثناء الشقيقة الطيّبة؟ لقد كانت السيّدة س. تعامل الفقراء بشكل جيّد جدًّا وتجلس على كرسيها المتحرّك وتتحدّث مع الناس.. حفظها الله.

لقد أخبرتُها يومًا كم أنّها تبدو سعيدة وصابرة. فقالت لي: «لا تتخيّلي كم صعب عليّ أن أجلس مسمّرة عندما أحتاج إلى أيّ شيء ليقوم به الآخرون من أجلي.»

لقد علّمها الله الصبر وتركها لنا لكي نتعلّم منها كيف ينبغي علينا أن نتحلّى به في أوقات الحزن والمرض. حفظها الله. فهي قادرة على مساعدة الكثيرين من المعذّبين في هذه الأوقات. لقد بعث الله رسُل المحبّة والخير لمساعدة الجيران الفقراء.

ستحرسكم عناية الله

هناك أمّ محبوبة رأيتُها مرارًا في الكنيسة وهي تجلس إلى جانب ابنتها الكبيرة بيرلي وتلفّ ذراعها دائمًا حول ابنتها الصغيرة أوليف. كانت أمًّا صالحة. وكان ابنها الكبير جيمس غائبًا بسبب دراسته في كلّيّة بعيدة، كما أنّ زوجها كان يعيش بعيدًا أيضًا في أميركا. كانوا في غاية السعادة إلى أن اندلعت الحرب، فتركت الأمّ برمانا وجاءت برفقة أولادها لتسكن مع شقيقتها في الشوير، أي مع تلك السيّدة التي تملك منزلًا كبيرًا على التلّة.

كان ينبغي على جيمس البقاء في الكلّيّة ولم يكن يُسمح له بالخروج. وقد ظلّت أمّه تشعر بالقلق عليه إلى أن أُصيبت بنزلة صدريّة وتوفّيت

Scanned with CamScanner

على أثرها، فحضر الولد للمشاركة في جنازة أمّه التي دُفِنت في مقابر الأصدقاء في برمانا.

يوم الأحد الذي سبق وفاتها، راحت تغنّي بصوتها الجميل: «ستحرسكم عناية الله». وقد وفى الله بوعوده. أوليف الصغيرة بقيت مع أصدقاء لطفاء، وبيرلي بدورها بقيت مع أصدقاء لطفاء آخرين، أمّا جيمس، فقد عاد إلى الكلّيّة.

كانت بيرلي وأوليف تأتيان دائمًا لزيارة عمّتهما خلال أعياد الميلاد، كما كان مسموحًا لجيمس أن يحضر إلى المدرسة الصيفيّة خلال فصل الصيف، ولكنّه عندما عاد إلى الكلّية أصيب بالحمّى، فتمّت العناية به في المستشفى، وهو اليوم بخير.

الدبّ تيدي

اسمي تيدي. لقد أرسِلتُ عبر البحار إلى مكان يدعى بيروت ليتمّ وضعي على رفّ داخل أحد المحلّات التجاريّة. وفي أحد الأيّام، جاء قسيس أعمى مع ابنته الصغيرة إلى المحلّ من أجل شراء شيء جميل يمكنهما تقديمه كهديّة إلى طفلة مريضة. لقد ألقيا نظرة على الرفوف، وعندما رأتني الطفلة سارعت إلى القول: «آه يا أبي. هذا هو الدبّ تيدي الصغير. إنّه جميل جدًّا، ودورا سوف تحبّه كثيراً». سألها القسيس الأعمى: «كيف يبدو»؟ فأجابته الطفلة الصغيرة قائلة: «إنّه يرتدي معطفًا بنّيًّا، ويداه وقدماه لونهما زهريّ، وله أنف صغير وأذنان صغيرتان وعينان سوداوان صغيرتان. إنّه يبدو مثل رفيق محبّب صغير». ثمّ راح القسيس الأعمى يلامسني متفحّصًا حجمي، وقال: «أعتقد أنّه مناسب.»

أخذاني معهما في رحلة طويلة داخل الحافلة لنصل إلى المنزل في نهاية المطاف. كانت هناك ثلاث فتيات صغيرات: دورا التي كانت مريضة

Scanned with CamScanner

واثنتان أخريان، وكانوا في غاية السعادة لرؤيتي. لقد أحبّتني دورا كثيراً، وعندما تحسّن وضعها الصحيّ وأصبحت قادرة على الذهاب إلى المدرسة، أعطتني للصغيرة سيدار والطفلة ماري. لقد أحبّتاني بدورهما كثيراً، وكانتا تأخذاني إلى السرير معهما. وأينما كانتا تذهبان كنت أذهب معهما.

في أحد أعياد الميلاد، قامتا بتعليقي في الغرفة قرب شجرة الميلاد، فاستمتعتُ بوقتي كثيراً، وكنت أراقب الفرح في عيون الجميع. ولكن لاحقًا، كبُرتْ الصغيرات ولم أعد مناسبًا لكي يلعبن معي، فتمّ وضعي داخل صندوق مقفل بحيث لم أعد قادرًا على رؤيتهنّ. وبعد فترة من الزمن، جاءت السيّدة حاوي وأخرجتني من الصندوق، قبل أن تقدّمني إلى سيّدة أخرى قائلة لها: «قدّميه لألبرت». وقد شعرتْ تلك السيّدة بالسعادة وأخذتني إلى منزلها. يا إلهي كم كان الطفل سعيدًا لرؤيتي. فعندما قمتُ بهزّ يديّ، ضحك كثيرًا وراح يداعبني. وهكذا صرتُ أنام بين الطفل ألبرت وشقيقته الصغيرة هيلين، وشعرتُ بالسعادة مجدّدًا لأنّني أدركتُ أنّ هناك أحدًا ما في هذا العالم لا يزال يحبّني.

حلم زوجي

بينما كنّا لا نزال نعيش في نيوزيلندا، راود زوجي حلم رأى فيه صخرة كبيرة في عرض البحر، وسلّمًا يؤدّي إلى صخرة أخرى، ودرجات تؤدّي إلى أعلى الصخرة. وفوق القمّة، رأى عمّه والخوري حبيب، وتحتهما بدرجة رأى أمّه، وإلى الأدنى، رأى شقيقته تصلّي راكعة ومرتدية ثوبًا أبيض. وعندما استيقظ من النوم، كان يستشيط غضبًا ظنًّا منه أنّ الحلم ليس جيّدًا.

بعد فترة، سمع زوجي بأنّ عمّه توفّي، وبعد ذلك توفّيت شقيقته، وعندما عاد إلى وطنه بعد غياب استمرّ نحو ثلاثة وعشرين عامًا، وجد أنّ أمّه توفّيت أيضًا.

Scanned with CamScanner

الخميس 8 آذار (مارس) 1917

تناولنا طعام الفطور ثمّ ذهبنا لإحضار الخبز، فتمكّنتُ من الحصول على رغيف ونصف الرغيف. أرسلتُ الرغيف إلى الياس مع أحد الأولاد وأبقيتُ على نصف الرغيف في المنزل، ولكنّني علمتُ بعد الظهر أنّ الولد أكل الرغيف ولم يعطِه إلى الياس، فأمضى زوجي نهاره كاملًا من دون خبز.

لا أعلم بمن يمكننا أن نثق في هذه الأيام؟

11 آذار (مارس) 1917

غرفة السلام

كنت أقرأ في كتاب ذات يوم عن سيّدة قامت بتجهيز غرفة خاصّة لكي تلجأ إليها وترتاح بداخلها كلّما كانت تشعر بالقلق والتعب. لقد طَلَتْ هذه السيّدة جدران الغرفة باللون الأبيض، ووضعت فيها إنجيلًا وعددًا من الكتب الجميلة، حتّى أنّ أصدقاءها كانوا يلجأون إلى غرفتها كلّما كانوا يشعرون بدورهم بالضيق والتعب، أو كلّما كان الواحد منهم يغضب من الآخر، وكانت تسمح لهم بذلك شريطة التزام الهدوء وعدم التفكير بأيّ شيء سلبيّ أو النطق بأيّ ألفاظ بذيئة. كانت غرفتها مريحة للجميع. وذات مرّة، أخبرتْها إحدى صديقاتها أنّها تعاني من بعض المشاكل الزوجيّة التي يمكن أن تصل إلى حدّ الطلاق، فما كان من تلك السيّدة إلّا أن طلبت من الزوجة الشابّة الذهاب إلى غرفتها والجلوس هناك لساعة من الوقت من دون التفكير بالأشياء السيّئة تجاه أيّ شخص. وهذا ما حصل بالفعل. ولكنّ اللافت أنّه قبيل مُضيّ الساعة، بادرت الزوجة بالخروج. وعوضًا عن الدموع، كانت ترسم على وجهها ابتسامة جميلة، ثمّ خاطبت السيّدة صاحبة الغرفة قائلة: «لقد فعلتُ كلّ ما طلبتِ منّي، وسرعان ما اكتشفتُ كم أنّ زوجي شارلي رائع معي، وكم أنّني كنت على خطأ.»

Scanned with CamScanner

كان لتلك السيّدة ولد صغير وشقيّ، وغالبًا ما كانت تطلب منه التزام الهدوء عندما يدخل إلى تلك الغرفة. وكان الولد بدوره يلجأ إلى الغرفة كلّما كان يشعر بأنّ نزعات الشقاوة أصبحت على وشك التمكّن منه، ويقول: «أرجوكِ أن تسمحي لي بالدخول إلى غرفتك، فهذا هو المكان الوحيد الذي يجعلني أشعر بالراحة.»

فكّرتُ بدوري بهذا الأمر الرائع. ولكن كيف يمكنني تجهيز غرفة بهذا الشكل وأنا لديّ أطفال صغار ونعيش جميعًا في غرفة كبيرة واحدة؟ ثمّ أخبرتُ صديقتي السيّدة حاوي بالموضوع، وعبّرتُ لها عن أمنيتي بأن تكون لديّ زاوية صغيرة ألجأ إليها، خصوصًا في هذه الأوقات الصعبة التي وصلتْ فيها حدّة توتّر أعصابي إلى درجة عالية، من دون أن تكون هناك أيّ بادرة أمل لتحقيق أمنيتي بسبب عدم توفّر فسحة على هذا الشكل في الغرفة التي نسكن فيها. ولكنّ نعمة الله كبيرة، وها أنذا أشعر بأنّ أمنيتي يمكن أن تتحقّق بعد أن استلمتُ في هذا الصباح رسالة من السيّدة حاوي، إليكم بعض ما جاء فيها:

«11 آذار (مارس): عزيزتي السيّدة بو صادر. أرجو تزويدي بالوصف الخاصّ بالغرفة الهادئة التي أخبرتيني بشأنها. ليحفظك الله في هذا اليوم الممطر، وإذا كنت تشعرين بأنّ الضوضاء تؤثّر على أعصابك، فيمكنك المجيء إليّ، وسوف أخصّص لك غرفة هادئة لكي ترتاحين فيها.. مع محبّتي.»

صديقتي السيّدة حاوي تملك منزلًا كبيرًا، والحمد لله، فأنا سوف أتمكّن من الذهاب إليها لكي أرتاح لمدّة نصف ساعة.

وفاة السيّدة تالبورت

حمل هذا اليوم معه أخبارًا سيّئة، فصديقتنا العزيزة السيّدة تالبورت

Scanned with CamScanner

انضمّت إلى عالم الملائكة على العرش الأبيض، فليساعد الربّ أولادها الأعزّاء.

وصفة البندورة الخضراء

قسّمي على أرباعٍ حبّات من البندورة. ضعي رشّة ملح على كلّ طبقة منها واتركيها لمدّة اثنتي عشرة ساعة، ثمّ ضعي فوقها شريحتين من البصل والقليل من الخلّ والبهارات والزنجبيل والقرفة. اشعلي النار تحت الماء، وعندما يغلي، ضعي البندورة والبصل واتركيها تغلي لمدّة عشر دقائق أو ربع ساعة. اغلي كلّ شيء بالخلّ وامزجيه لاحقًا بالخردل، ثمّ اسكبيه في الوعاء.

15 آذار (مارس) 1917

لقد حاول والدي على مدى سنوات طويلة توفير المال لنا. وبالأمس، رأيته في حلمي قادمًا إليّ ليريني رسالة كتبَ عليها: «هذا هو اسم الشخص الذي يعرف بخصوص الأموال». كان الاسم (م. ويليام س.)، وها أنذا أدوّنه هنا لكي أتذكّره، فمن الممكن أن يعني شيئًا ما.

الأحد

إنّه يوم الربّ للراحة. طلبتُ من بيرلي أخذ الصغار في نزهة بعد الظهر، وفي اليوم التالي غابت بيرلي بعد الظهر لمدّة ساعتين.

الاثنين هو يوم الغسيل، والجمعة هو موعد استحمام الأولاد عند الساعة العاشرة، ومن يغيب منهم لن يتمكّن من الحصول على الخبز.

كنت أبدأ العمل حوالي الساعة السادسة صباحًا. الفطور عند الساعة الثامنة بعد أن تكون ابنتي الكبيرة قد نظّفت المكان وغسلت الصحون

Scanned with CamScanner

والسلام. عند الساعة الثامنة والنصف كان الصغار يذهبون إلى المدرسة. عند العاشرة راحة. عند الثانية عشرة والنصف كنت أتناول طعام الغداء مع بيرلي. العشاء عند الساعة السادسة والنصف، ثمّ غسيل الصحون والذهاب لتأمين المياه اللازمة خلال الليل. وكان الأطفال يخلدون إلى النوم عند الساعة الثامنة، وابنتي الصغيرة عند التاسعة، وابنتي الكبيرة عند التاسعة والنصف... وهكذا.

9 نيسان (أبريل) 1917

جاء جاك من بيروت وتناولنا وجبة من البطاطا مع البصل. الرجاء يا الله دعنا نحصل على بعض القمح. لقد صلّيت إلى الله لأشكره على أنّ البنات بخير.

كان هناك ثلاثة أشخاص في المنزل لدى وصول جاك، فرأوا كم كان جائعًا، حيث أنّه أكل صحنًا كبيرًا من البطاطا والبصل وحوالي ثلاث أوقيات من الخبز. أليس من الرائع أن يكون هؤلاء الأشخاص الثلاثة هنا، فلولاهم لم يكن جاك ليتمكّن من أكل الخبز. صلّيت إلى الله وكلّي يقين بأنّه سيستجيب لصلواتي، وأنّ أحدهم سوف يكون بخير.

...والجنود

يا إلهي كم أنّ الله رحيم بنا. لقد استجاب لصلواتي، فها هو الياس يذهب مجدّدًا اليوم إلى برمانا لكي يُحضر الخبز، فصادف على الطريق أحد الجنود الذين كانوا قد أخذوا منه الخبز في الماضي. كان الدكتور فورجيرا قد رآهم بينما كانوا يضربون الياس، قبل أن يقوموا أيضًا بسلب امرأة فقيرة اثني عشر رغيفًا لدى مرورها في المكان. الأمور أصبحت بالغة الصعوبة والتعقيد لدرجة أنّ الجنود راحوا يسلبون الخبز من

Scanned with CamScanner

الناس، ولكن الحمد لله لأنّ الحكومة كانت تقدّم بعض المساعدات لإبقاء الناس على قيد الحياة.

22 نيسان (أبريل) 1917

الإيمان بالله

لقد جاء ابني جاك من الكلّيّة وتحادثنا حول العديد من الأمور. قال لي: «الأولاد في الكلّيّة يرغبون في رؤيتك يا أمّي». فقلت له: «لماذا، هل يعرفوني»؟ أجابني بالقول: «لا.. ولكنّهم سمعوا الكثير من القصص عنك وعن إيمانك العميق وثقتك الكبيرة بالله.»

الحمد لله، ويا ليتني كنت قادرة على القيام بأيّ عمل من أجله. ليتمجّد اسمه.

Scanned with CamScanner

الفصل التاسع

24 نيسان (أبريل) 1917

صديقتي

صديقتي العزيزة السيّدة حاوي ذهبت إلى بيروت منذ حوالي أسبوعين من أجل الحصول على بعض الأموال، وأخذت معها الطبّاخة ليميا وابنها الصغير. وبعد عدّة أيّام، عادت الطبّاخة إلى المنزل وقالت إنّ السيّدة حاوي ستعود في وقت لاحق.. ولكنّها في الحقيقة لم ترجع. وقد شعر الجميع بالقلق عليها، فما كان منهم إلّا أن أرسلوا أحد الرجال إلى بيروت لكي يسأل عنها، فقيل له إنّ السيّدة حاوي غادرت قبل أربعة أيّام.

يا إلهي كم صلّيتُ لكي يحفظ الله صديقتي العزيزة ويبقيها بخير. لقد كنّا نعلم بأنّها ذهبت لإحضار بعض الأموال معها، الأمر الذي رفع درجة قلقنا عليها، سيّما وأنّ العادة درجت في هذه الأوقات الصعبة على أن يقوم البعض بسلب الخبز من الناس الفقراء، فماذا سيفعلون بها يا ترى عندما يعرفون أنّها تحمل المال؟

رجاءً يا الله احفظها بخير، وأنا سأصلّي من أجلها في كلّ الأوقات لكي تعود إلى البيت سالمة. إنّها لا تعرف كم أنّ الناس يحبّونها، فقد تغيّرت كثيراً في الآونة الأخيرة، وكانت تطيّب خاطرنا وتجمعنا معًا في أوقات الشدّة. يا ربّي احمها وارجعها إلى البيت سالمة، واحفظ أولادها الصغار ماري وسيدار

Scanned with CamScanner

الذين كانا يشعران بالقلق الشديد عليها. وذات صباح عادت السيّدة حاوي إلى منزلها من دون المال، ولكنّها كانت بخير.. الشكر لله.

إنجيل الجيب

ثمة فتى وسيم يتحدّث الإنجليزيّة، وغالبًا ما كنت أتحاور معه منذ زمن طويل. أريته إنجيلي في إحدى المرّات، فوعدني بأنّه سوف يحمل إنجيلًا مماثلًا في جيبه ويقرأه كلّما سنحت له الفرصة. وقد أحضر الفتى معه لاحقًا فتى آخر، ووعدني أيضًا بقراءة الإنجيل. وهكذا رحتُ أجمع الصبية على بركة الله سعيًا إلى القيام بالأعمال الجيّدة من أجله.

المنقذ العظيم

من الرائع أن يكون لدينا منقذ يطعمنا ويكسونا يوميًا وفي كلّ الأيّام. من الرائع أن يكون لنا منقذ يعلّمنا في أوقات جهلنا، ويكون معنا عندما يصيبنا المرض، ويؤمّن وسادتنا عندما نموت. ولكنّ هذا جزء بسيط ممّا يمكنه القيام به من أجلنا نحن الذين نؤمن به، فملائكته هي التي تحمل أرواحنا إليه عندما نموت وتُدخِلنا إلى الجنّة، حيث يوجد البيت الجميل لجميع المؤمنين الذين يحبّونه. إنّ لدى الله ملائكة ستوقظ يوم القيامة النائمين في قبورهم، وتحملهم إليه لكي يُدخِلهم إلى جنّته.

25 نيسان (أبريل) 1917

عاد جاك إلى المنزل في وقت متأخّر من الليلة الماضية برفقة البروفسور باتش الذي تناول العشاء في منزل السيّدة كارلسو وأمضى ليلته هناك، قبل أن يعودا أدراجهما في الصباح الباكر. ليحفظ الله جاك والبروفسور باتش. ولكنّ الأخبار السيّئة هي أن البروفسور باتش كان قد حضر في الأساس

Scanned with CamScanner

من أجل توزيع القمح علينا، فلم يتمكّن من البقاء.. ليساعدنا الربّ جميعًا في هذا اليوم لأنّنا نشعر حقًّا بالجوع. إنّ كافّة أبناء البلدة يعانون بشدّة خلال هذه الأوقات الصعبة، ولكنّ عناية الله ستعمّ الجميع طالما أنّنا نؤمن به.

30 نيسان (أبريل) 1917

الإيمان بالله

ماذا عسانا أن نفعل؟ إنّنا جميعًا جوعى وهناك ضجّة وإرباك حول القمح. لقد حضر البروفسور باتش مجدّدًا ولكنّ الحكومة صادرت القمح. ليساعدنا الله، فمن الصعب جدًّا أن يشعر المرء بالجوع. الله وحده يعرف مدى معاناتنا، وإنّني واثقة من أنّه لن ينسانا... الظروف صعبة للغاية، ولكنّنا يجب أن نثق به، فهو يعرف كلّ هذه الأمور.

الأغنياء لا يعرفون كيف يشعر الناس عندما يكونون جوعى. ليحفظ الله البروفسور باتش وعائلته. فبالأمس لم نتناول أيّ طعام لغاية الساعة الخامسة مساءً، أمّا اليوم، فلم نأكل أيّ شيء لغاية الآن. ماذا عساي أن أفعل؟ لقد ذهبتُ إلى مختلف أنحاء البلدة لكي أحاول بيع أيّ شيء من أغراضنا، ولكن ليس لديّ أيّ شيء ثمين يمكن بيعه، فكلّ الأغراض الثمينة بيعت. وها أنذا أشعر بالإرهاق ولم يعد بإمكاني كتابة المزيد.. أنا وأطفالي الصغار جوعى، فاحفظنا يا الله.

شكرًا للأصدقاء اللطفاء الذين قدّموا لنا المساعدة، وليحفظهم الله. فأنا لم أكد أنهي صلاتي حتّى أرسل لي الله ربع رطل من الطحين عن طريق السيّدة العزيزة كارسلو. شكرًا لك وليتمجّد اسمك أيّها الرب، فأنا أعرف أنّك لن تنساني.

Scanned with CamScanner

الثقة بالله

كلّ شيء أصبح غاليًا، فماذا يمكن أن نفعل؟ لقد أمضى زوجي ساعات النهار بأكملها في الخارج ولم يتمكّن من الحصول سوى على رغيفين من الخبز، فأبقاهما معه إلى حين عودته، ثمّ قمتُ بتقسيمهما على الأولاد ليحصل كلّ منهم على قطعة صغيرة، بعد أن كنت قد أعددتُ حساءً من العدس المسلوق مع الملح. نعم مجرّد عدس مسلوق مع رشّة ملح. لقد جعلتنا هذه الأوقات الصعبة نرأف ببعضنا البعض، وغدًا سيذهب زوجي إلى برمانا، ويجب علينا أن نثق بالله.

31[4] نيسان (أبريل) 1917

ذهبتُ لرؤية السيّدة كارسلو من أجل شكرها، وكانت تشعر بالقلق حيال ما إذا كان ينبغي عليها الرحيل وهي ليست قادرة على الحركة منذ خمسة عشر عامًا. فليساعدها الله. لقد نصحتني بأن أرسل الياس إلى برمانا للقاء السيّد أوليفر. وكان الياس قد ذهب بالفعل إلى هناك هذا الصباح، وعندما عاد، حمل لي معه عشرين قرشًا أرسلتْها لي السيّدة العزيزة ليتل، كما أرسلتْ لي السيّدة العزيزة قرطاس ستّة أرغفة من الخبز وقطعة من الصابون مع رسالة جميلة. وكم فرحتُ لدى رؤية قطعة الصابون. يا إلهي كم أنّ هؤلاء الناس لطفاء. ليحفظهم ويحرسهم الله جميعًا، فلولا لطفهم لما بقينا على قيد الحياة لغاية اليوم. ليحفظ الله السيّد أوليفر والبروفسور باتش وكلّ الأصدقاء المخلصين.

إنجيل الجيب

عندما غادرتْ صديقتي الآنسة إيثيل ستيفنز هذه البلاد لدى اندلاع الحرب، أعطتني إنجيلين صغيرين لإهدائهما إلى من أشاء.

Scanned with CamScanner

أعطيتُ الأوّل لشخص لا يؤمن بالمسيح لأنّه من ديانة مختلفة ويؤمن بمحمد، ولكنّه قال لي إنّه سمع قصّة المسيح ويرغب في معرفة المزيد عنها. وعلى هذا الأساس أعطيته النسخة، وصلّيتُ لكي تعود عليه بالخير. أمّا النسخة الثانية، فقد أعطيتُها لرجل هارب من العدالة، وقد رأيتُه مرارًا يقرأ فيها في المنزل الذي كان يختبىء فيه.

وبعد عدّة أشهر، سمعتُ أنّه وقع بين أيدي رجال القانون وتمّ إطلاق النار عليه. ومن يدري، فقد تكون نسخة الإنجيل قد ساعدته، والله وحده يعرف كلّ شيء.

الدمية

قبل اندلاع الحرب، كانت صديقتي السيّدة بروكبانك قد أهدت طفلتي الصغيرة هيلين دمية مصنوعة من القماش وتدعى بيتي الزرقاء. وخلال تلك الأوقات الجميلة، كنت قد حشوتها بالنخالة دون أن أدري أنّنا سنضطرّ إلى أكله لاحقًا. فبينما كنتُ أفتّش في الصناديق القديمة سعيًا إلى العثور على أيّ شيء يمكنني بيعه من أجل شراء بعض الخبز، أخرج الأولاد الدمية من الصندوق وراحوا يلعبون بها، فإذا بهم يجدون النخالة تنهمر منها. قال لي هاري: «انظري يا أمّي إلى هذه النخالة داخل الدمية. خذيها واصنعي لنا بعض الخبز منها».

يا للمصادفة! لقد كنت أملك متليكًا واحدًا، فأرسلتُ هاري لشراء بعض الطحين، ورحتُ أنفض كلّ النخالة الموجودة داخل بيتي الزرقاء المسكينة، وصنعتُ بعض الخبز لنسدّ به رمقنا، خصوصًا وأنّنا كنّا نشعر بالجوع الشديد. وعندما عاد زوجي في المساء، أحضر معه بعض الخبز، فشكرنا الله على أنّنا سنجد ما نأكله في اليوم التالي.

Scanned with CamScanner

1 أيّار (مايو) 1917

قطعة الصابون

عندما كان الصابون غاليًا خلال الحرب، أرسلتْ لي صديقتي العزيزة السيّدة قرطاس قطعة منه، وكنتُ في غاية السعادة للحصول عليها. لقد أخذ الجميع حمّامًا جيّدًا، ثمّ قمتُ بغسيل الملابس، وشعرتُ بالراحة لأنّها أصبحت نظيفة، فليس هناك أجمل من أن تشعر بالنظافة.

كنت أشعر بالقلق تجاه انتشار القمل الجلديّ وما يحمله معه من أوبئة، فغالبيّة الناس ليس بمقدورهم الاستحمام، وكان لونهم يميل إلى السواد جرّاء الدخان والوسخ. بعضهم لم يكن يجد الماء الكافي للاستحمام، وبعضهم الآخر لم يكن يهتمّ. فعندما يشعر الإنسان بالجوع، فإنّه لا يعطي أيّ أهميّة لمظهره، أو لما إذا كان منزله نظيفًا أم لا. فليحفظ الله الناس الفقراء ويساعدهم على تجاوز هذه المحنة. وها أنذا بدوري، وبعد الانتهاء من الاستحمام والغسيل، أعطيتُ ما تبقّى من قطعة الصابون إلى جارة فقيرة تسكن قرب منزلي وتعيل عائلتين. لقد كانت سعيدة جدًّا، وليحفظها الله.

2 أيّار (مايو) 1917

المسيح قال

كنت أتحدّثُ إلى رجل شابّ من المدرسة حول الناس الفقراء في الشوير. قلتُ له: «لماذا لا يقوم الأغنياء هنا بمساعدة الفقراء، فالمسيح طلب منّا مساعدة الفقراء»؟ قال لي: «لا، المسيح قال بأن نساعد أنفسنا أوّلًا وإذا تبقّى لدينا أيّ شيء فلنعطه إلى الفقراء». قلت له: «لا أعتقد أنّ المسيح قال ذلك، فهل يمكنك مساعدتي في العثور على النصّ الذي يؤكّد هذا القول في الإنجيل»؟ فوعد بأنّه سوف يفعل ذلك.

Scanned with CamScanner

أعطيتُ إنجيلي لذلك الرجل ورحت أصلّي لكي يجد فيه شيئًا يعود بالخير عليه. وفي صباح اليوم التالي، عاد إلى منزلي ليقول: «هذا إنجيلك. لقد وضعتِ خطًّا أحمر تحت كلّ أقوال المسيح فيه، الأمر الذي سهّل عليّ عمليّة البحث، ولكنّني لم أجد في الحقيقة الفقرة المطلوبة. ويا إلهي كم من السهل على الناس القيام بخلق معانٍ مختلفة لأقوال المسيح عندما يرغبون في ذلك.»

لقد قال المسيح: «ساعدوا الفقراء.»

Scanned with CamScanner

الفصل العاشر

3 أيّار (مايو) 1917

منزلنا في نيوزيلندا

كان منزلنا في نيوزيلندا رائعًا ويتكوّن من متجر، صالة، غرفة طعام، أربع غرف نوم، وحمّام تتوفّر فيه المياه الباردة والساخنة، بحيث لم يكن علينا سوى فتح الحنفيّة للبدء بالاستحمام. كان في المنزل أيضًا مطبخ كبير يحتوي على موقد ومخبز وجهاز طبخ، إضافة إلى غسّالة موصولة بمياه باردة وساخنة أيضًا، ولم نكن مضطرّين لحمل المياه من الخارج ونقلها إلى المنزل. وكانت الأضواء الكهربائيّة تشعّ في كلّ غرفة، وما علينا سوى الضغط على الزرّ لكي نحصل على الإنارة.

أشغال المتجر كنت قد أوكلتُ بها إلى إحدى الفتيات، وكانت لديّ فتاة أخرى تساعدني في الاهتمام بشؤون الأولاد، إضافة إلى امرأة كانت تأتي مرّة في الأسبوع لكي تهتمّ بالغسيل.

كان لدينا أثاث جميل من الكراسي والطاولات والسجّاد وغيرها من الأشياء التي تجعل المنزل جميلًا، كما أنّنا كنّا قادرين على توفير الكثير من الطعام للأكل، ولكنّنا لم نكن قنوعين. ففي كلّ مرّة كانت فيها أعمالنا وأمورنا تتعثّر، كنّا نقول إنّ هذا ليس إلّا حظًّا سيّئًا، ولم نكن نشكر الله على ما أنعم به علينا.

Scanned with CamScanner

منزلنا في سوريا

بعد ثمانية أعوام من الإقامة في سوريا، أعتقد أنّه ينبغي عليّ أن أخبركم عن منزلنا هنا. لقد قرأتُ عن كابينات الرجال في إيرلندا، ولكنّني لم أصدّق إلّا بصعوبة بالغة أنّ العيش ممكن في مثل تلك المنازل. أمّا اليوم، فقد أدركتُ الفوارق بين الدول في هذا المجال.

لدينا هنا غرفة واحدة. وقد بذلتُ قصارى جهدي لكي أجعلها مناسبة للعيش، ولكنّني لم أتمكّن من جعلها تبدو وكأنّها منزل.

لم أكن أتذمّر عندما كنت أشعر بأنّني بخير، ولكنّني كنت أشعر باستياء شديد في حالات المرض، وخصوصًا في ظلّ عدم وجود أيّ شخص للعناية بي. ولكن الحمد لله. كنت أشعر بسلام في قلبي، وبأنّ الله معي لأنّه دائمًا مع الفقراء.

هنا في هذه الغرفة كنت أعيش مع زوجي وأطفالنا الثلاثة. ابني الكبير واثنتان من بناتي ذهبوا إلى بيروت حيث كانوا يعملون مقابل راتب لا يكفيهم سوى لشراء بعض الطعام، وتبلغ قيمته شلنًا واحدًا وثلاثة بنسات شهريًا، وهو مبلغ يمكن الحصول عليه بكلّ سهولة، يوميًا وليس شهريًا في نيوزيلندا!

لقد كانت غرفة كبيرة فيها نافذة صغيرة واحدة من دون زجاج، وكنّا نغطّيها بقطع خشبيّة لدى هطول الأمطار في فصل الشتاء، الأمر الذي كان يحجب الرؤية إلى الخارج. وكان في الغرفة أيضًا بابين أحدهما يؤدّي إلى سطح صغير حيث كنّا نضع الماعز، والآخر يؤدّي إلى الشارع. أمّا الجدران، فقد كان فيها اثني عشر ثقبًا صغيرًا من أجل دخول الهواء النظيف، وكنّا نحشو تلك الثقوب بالنخالة خلال فصل الشتاء من أجل تفادي الصقيع. وعلاوة على ذلك، فقد كانت تلك الجدران تحتوي أيضًا على خزانة صغيرة واحدة.

Scanned with CamScanner

كنت أركن سريري في إحدى زوايا الغرفة، أمّا بقيّة أفراد العائلة فكانوا يفرشون على الأرض وفقًا لتقاليد النوم في هذه البلاد.

أرضيّة الغرفة كانت عبارة عن طين ويمكن رشّها مرّة في الأسبوع، ولكنّ أسوأ شيء كان يتمثّل في عدم وجود موقد نار، وعسى أن يساعدني الله لكي أصنع موقدًا بنفسي. لقد كنّا نشعل النار في وسط الغرفة من دون أن تكون هناك قساطل لتسريب الدخان إلى الخارج أو أيّ شيء من هذا القبيل. كان الدخان ينتشر داخل الغرفة ويصبغ كلّ شيء باللون الأسود.

الأغنياء هنا كانوا يستخدمون الفحم من أجل التدفئة، فتبقى غرفهم نظيفة. ونحن بدورنا كنّا نستخدم الشيء نفسه، ولكنّنا أصبحنا فقراء بعد ثلاث سنوات من الحرب، والله سوف يعيننا دون شكّ. لقد كنّا نشعر بالجوع، ولكنّنا بقينا بخير، وتعلّمنا أن نشكر الله على لطفه بنا.

بعد عدّة أشهر سيبدأ موسم العنب. وقد تعلّمت أن أكون قنوعة وصبورة بانتظار الإشارة التي ستأتينا من الربّ لكي نعود إلى نيوزيلندا.

عندما جئنا إلى هنا، أحضرنا معنا سكاكين وشوكًا وصحونًا وفناجين وشراشف مائدة ظنًّا منّا أنّ العادات في هذه البلاد تشبه عاداتنا، ولكنّ الناس هنا يجلسون على الأرض ويتناولون وجباتهم، علاوة على أنّهم يسكبون الطعام في صحن كبير واحد، فيأكل منه الجميع بالخبز الرقيق الذي لا تتعدّى سماكته سماكة الورق.

خلال الأيّام الأولى التي أعقبت وصولنا، كانت زوجة شقيق الياس تقوم بغسل الصحون والملاعق والسكاكين والشوَك، ولكنّها سرعان ما راحت تشعر بالتعب جرّاء القيام بما لا تعتبره أمرًا ضروريًّا، فما كان منها إلّا أن بادرت إلى تعليم الأولاد طريقة الأكل بالخبز من الصحن الكبير، لقمة لقمة، وفقًا للعادات المتّبعة هنا.. ولكنّني كنت أفضّل دائمًا الجلوس على كرسيّ أثناء تناول الطعام. فهل لكم أن تتخيّلوا ذلك؟

Scanned with CamScanner

4 أيّار (مايو)

وجع أسنان الجندي

استيقظتُ في الصباح الباكر من أجل السعي للحصول على بعض الخبز لكي يتسنّى لنا تناول طعام الفطور. ولدى خروجي، مررتُ بمتجر السيّدة حاوي، فإذا بي أجد عندها جنديّان غريبان. نادتني السيّدة حاوي، وسألني أحد الجنود عمّا إذا كان لديّ أيّ مسكّن لآلام الأسنان لأنّه كان يعاني كثيراً. عدتُ أدراجي إلى المنزل لأحضر له زيت القرنفل، ثمّ أعطيته للجنديّ، فوضع القليل منه على أسنانه، وراح يشعر بالارتياح. شكرني على المساعدة. وبينما كنت أمضي في طريقي دون أن أفكّر في الحصول على أيّ مقابل لما فعلت، سارع الجنديّ بمناداتي، وحاول إعطائي نصف بشلك. لم أكن أريد قبولها لأنّ ما فعلته ليس أكثر من محاولة لتخفيف الألم عن شخص يشعر به، ولكنّ الجنديّ أصرّ، وقال لي: «اشتري بعض الخبز من أجل الأولاد». وهكذا تمكّنت من شراء رغيفين، وشكرت الربّ على نعمة الفطور.

5 أيّار (مايو)

أخبار جيّدة

عاد زوجي من بيروت وأحضر معه بعض الخبز. قال لي: «لديّ أخبار جيّدة لك ورسالة من السيّد باتش يمكنك قراءتها بعد تناول بعض الطعام». وعندما قرأتُ الرسالة شكرتُ الله لأنّه يساعدنا طالما أنّنا نؤمن به. فبعد أن كنتُ قد بعتُ كلّ ما يمكنني بيعه، ها هو البروفسور باتش يطلب منّي في الرسالة أن أذهب مع أولادي إلى برمانا لأنّه يريدني أن أشرف على أطفال الشوير الذين قرّر الدكتور دراي إيواءهم وإطعامهم على نفقته. ليباركه الله مع زوجته وأطفاله. فقد كان صديقًا وفيًّا لنا.

Scanned with CamScanner

6 أيّار (مايو)

ها نحن نستعدّ للذهاب إلى برمانا. فكم من الرائع أن نتمكّن من رؤية الأصدقاء المخلصين مجدّدًا. الحمد لله.

7 أيار (مايو)

مغادرة الشوير

استيقظنا في الصباح الباكر، وبدأنا نسلكُ طريقنا قبل شروق الشمس. شعرتُ بالأسف أنا وأولادي عندما ودّعنا الجميع. كان يرافقنا ميشال نمر وشقيقه جورج إضافة إلى كلّ من جميل وحبيب. لقد سار الأولاد بشكل جيّد، وكان ميشال وجميل يحملان ابني الصغير ألبرت.

هكذا إذن تركنا الياس وحده، ورحتُ أتمنّى له أن يبقى بخير لأنّه كان يعاملنا دائمًا بشكل جيّد. لقد كان يمضي النهار بأكمله من دون طعام سعيًا إلى إحضار أيّ شيء يمكن أن يؤكل من أجل الأولاد. وها أنذا أتمنى للتوّ أن يكون الأولاد بخير وأن نبقى سعداء.

الشكر لله على نعمته، فقد وصلنا إلى برمانا بعد رحلة طويلة سيرًا على الأقدام، والتقينا مع كلّ الأصدقاء الأعزّاء.. السيّد والسيّدة قرطاس وأولادهما وكذلك السيّد تابريم.

يا إلهي كم أشعر بالسعادة بعد العودة إلى برمانا مجدّدًا. لقد أمضيتُ الكثير من الأيّام السعيدة هنا، وها أنذا أشعر بأنّني لست قادرة على إيقاف دموعي بعد أن رأيتُ المستشفى وتذكّرت الآنسة كومنيتون، فالعديد من الأصدقاء كانوا قد رحلوا بعيدًا.

تناولنا في المساء عشاءً شهيًّا، وشكرنا الله على استجابته لصلواتنا، كما شكرنا كلّ الأصدقاء الأعزّاء على ما قدّموه لنا من مساعدة. ذهبنا بعد ذلك للقاء صديقة قديمة من مدرسة البنات. كان لديها خمس عشرة حلّة

Scanned with CamScanner

موضوعة فوق النار في المطبخ، وكلّها تغلي. لقد حان الآن وقت توزيع الطعام على الفقراء.

السيّدة قرطاس سكبت الطعام في أوعية كبيرة الحجم استعدادًا لاستقبال الناس الذين كانوا يأتون حاملين علبًا صغيرة من الصفيح ليُسكبَ لهم فيها ما تيسّر من الأكل. فليحفظ الله الدكتور دراي والسيّد والسيّدة قرطاس على هذه الأعمال النبيلة.

8 أيّار (مايو)

مكثتُ في غرفة صغيرة داخل منزل أحد معارف الياس لمدّة ثلاثة أيّام، إلى أن قام أحد الأولاد بسرقة حبّة خوخ من شجرة قرب النافذة وبعض سنابل القمح التي كانت تنمو في الخارج. وقالت السيّدة صاحبة المنزل إنّها لن تسمح للأولاد بالبقاء أيّ مدة إضافيّة، معربة عن أسفها على ذلك.

بذلتُ قصارى جهدي من أجل إيجاد مسكن بديل ولكنّني لم أوفّق. وعندما أخبرتُ السيّدة قرطاس بالأمر، سارعتْ إلى تأمين مكان لنا في «بيت إده»، فحُلّت مشكلة السكن، ورحتُ أصلّي إلى الله لكي يجعل الأولاد هادئين وعاقلين بما يضمن عدم الإساءة إلى أصدقائنا الطيّبين، سيّما وأنّ المسؤوليّات الملقاة على عاتق أولئك الأصدقاء كانت كبيرة. فبالإضافة إلينا، كانوا يُطعمون حوالي ثلاثين عاملًا، إضافة إلى عشرة أيتام لا يوجد أيّ معيل لهم. لقد كانت السيّدة قرطاس هي التي تعتني بهم، حيث أنّها أعدّت لهم مائدة ومقاعد ليجلسون حولها، وكانوا يبدون في غاية الروعة. كان ذلك المكان يسمّى «مطبخ الدكتور دراي»، وخلال فترة بعد الظهر، كان الجميع يشعرون بالسعادة لدى وصول الدكتور دراي.

في إحدى الأمسيات، حضر الدكتور دراي برفقة رجل وسيم لم أكن قد رأيته من قبل، فقدّمني إليه، ثمّ طلب منّي الرجل أن ألاقيه لاحقًا. ذهبتُ

Scanned with CamScanner

إليه عند الساعة الثانية عشرة، فإذا به يسألني عمّا إذا كنت أرغب في الإشراف على أطفال الشوير المحتاجين. قلت له إنّ هذا الأمر يسعدني حقًّا، وشكرته على لطفه معنا جميعًا.

الأحد

أمضينا نهارًا سعيدًا وأخذتُ الأولاد إلى الكنيسة خلال فترة بعد الظهر. لقد انضمّ إلينا سبعة أولاد جدد من الشوير ليرتفع العدد إلى خمسة عشر ولدًا. كنّا ننام في غرفة واحدة. البعض في أعلى السرير والبعض الآخر في أسفله، ولكنّ الجميع كانوا يشعرون بالسعادة.

بعد تناول طعام العشاء، رحنا ننشد التراتيل. ليحفظ الله كلّ الأولاد سالمين. كنت أشعر بسعادة بالغة نظرًا لأنّني أصبحت قادرة على تقديم المساعدة للآخرين. الجميع هنا في غاية اللطف والتهذيب، وإنّني مسرورة جدًّا لوجودي في برمانا، سيّما وأنّه أصبح بإمكاني الآن التحدّث إلى جميع الأصدقاء الطيّبين عن أولئك الأصدقاء الأعزّاء الذين رحلوا إلى العالم الآخر. فليحفظنا الله سالمين حتّى نهاية هذه الحرب.

الأربعاء

إنّه يوم حافل بالمشاغل. جهّزنا كلّ شيء في الصباح، وحضر ولد من الشوير وأخبرني بأنّ الياس بخير، ولكنّه يشعر ببعض التعب.

بعد ذلك حضر السيّد هاجر لرؤيتي وكنت سعيدة جدًّا بلقائه. ثمّ جاءت سيلي المسكينة لتبحث عن مكان تأوي إليه مع أولادها بعد وفاة زوجها. ليساعدهم الربّ جميعًا.

خلال فترة بعد الظهر، لم يعد الأولاد إلى المنزل، وعندما شعر الولد الجديد القادم من الشوير بالتعب، تركتُه يخلد إلى النوم. ثمّ ذهبتُ لرؤية

Scanned with CamScanner

السيّدين أبريان وقرطاس وأخذتُ الأولاد معي. كان حاوي وناميل قد تركا رغيفين من الخبز تحت وسادتهما. وقد رأيتُهما بنفسي بينما كنت أقوم بتنظيف الغرف. ولكنّ الولدين لم يجدا الرغيفين لاحقًا. فتّشنا في كلّ مكان. وسألنا الولد الذي خلد إلى النوم، فقال إنّه لم يأخذهما. الله وحده يعرف. وفي المساء حضر سليم إلى المنزل وذهب فورًا إلى النوم لأنّه كان يشعر بالتعب. ليحفظه الله. إنّه ولد طيّب ويعمل بكدّ من أجل العائلة بأكملها.

الخميس

استيقظ سليم من النوم بينما كان ناميل يقطف حبّة خوخ عن الشجرة، فرأته السيّدة، فيما كان أولاد آخرون يحصدون سنابل القمح في محيط المنزل، فما كان منها إلّا أن أخبرت السيّد قرطاس بالأمر. لقد شعرتُ بالأسى حيال ذلك، سيّما وأنّني بذلتُ قصارى جهدي لكي أجعلهم يتصرّفون دائمًا كأولاد عاقلين، ورحتُ أصلّي لكي يضع الله نهاية لهذه المأساة على الفور.

بعد ذلك حضرت السيّدة ستيفنز وأبلغتنا بأنّ منزلها تعرّض للكسر، وسُرقت منه الكثير من الأغراض. يا إلهي، لقد كان منزلًا جميلًا.

الفصل الحادي عشر

10 أيّار (مايو) 1917

عيد ميلاد هيلين

كانت هيلين تشعر بالسعادة والبهجة بمناسبة عيد ميلادها. ليحفظها الله ويرعاها.

السبت 12 أيّار (مايو) 1917

غادرَنا اليوم طفلان: الصغيرة روزا وجميل. كانت روزا قد وصلت إلينا نحيلة القوام، فاعتنيتُ بها لعدّة أسابيع، وكنتُ أحمّمها بنفسي، وأشرفُ على إطعامها أيضًا. هي طفلة عزيزة عليّ وسيبقى قلبي معها على الدوام.

كان شقيقها قد حضر إلينا من بيروت، وأصيب بالحمّى أثناء وجوده هنا، فطلب الطبيب بعد الكشف عليه أن لا يُسمح له بالاختلاط مع بقيّة الأطفال. أعطيتُه رغيفًا من الخبز وبعض الحليب قبل أن يذهب. ثمّ جاء إليّ ولد آخر ليخبرني بأنّه التقى معه، وليؤكّد لي أنّه بخير ويرغب في اصطحاب شقيقته روزا إلى المنزل. ليحفظ الله الأطفال الأعزّاء.

في المساء حضر خليل وجميل من بيروت. كان يومًا مرهقًا. فليجعل الله الأسبوع المقبل أكثر سعادة، ولنبقى بخير.

Scanned with CamScanner

الأحد 13 أيّار (مايو) 1917

يوم الرب

حضر الدكتور دراي لرؤيتنا في الصباح مثلما توقّعنا، بينما ذهب الأولاد لرؤية السيّدة قرطاس. لقد كانت في غاية اللطف. سألتُها عمّا إذا كانت ترغب في أن أقوم باصطحاب الأولاد إلى الكنيسة خلال فترة بعد الظهر، فأرسلتْ لي ملاحظة تقول فيها إنّهم سيذهبون جميعًا. إذن، سأصطحبهم الأحد المقبل بمشيئة الله.

ذهبتُ لرؤية السيّد قرطاس بخصوص الولد، وفي طريق العودة، تقابلتُ مع السيّدة دراي. إنّها سيّدة رائعة بالفعل وتعرف غلاديس وبيرل وجاك. كانت سعيدة برؤية ألبرت، هيلين، وهاري، فهي لم تنجب أطفالًا. أخبرتُها بخصوص الصغيرة ييلفي (Yelphy) وأشقّائها وكانت في غاية اللطف، ليحفظها الله.

رأيت السيّد دراي، فأخبرني بأنّه لا يوجد وقت كافٍ للقيام بإجراءات جديدة، وطلب منّي الاهتمام بالبنات ووضعهنّ تحت رعايتي. لتكن مشيئة الله إذن، فأنا مستعدّة لتقديم أيّ نوع من أنواع المساعدة للآخرين طالما أنّ الله كتب لي ذلك.

ليحفظ الله الياس، فقد كنت أشعر بالقلق عليه، وأتساءل دائمًا عمّا إذا كان بإمكانه إيجاد أيّ طعام ليأكل. ولكنّني أؤمن بأنّ الله سوف يساعده. وها هو سليم يذهب إلى البلدة، وسوف يأتيني بأخبار عن الياس بالتأكيد.

19 أيّار (مايو) 1917

استيقظنا في الصباح وتناولنا طعام الفطور. وفي وقت لاحق من النهار وصلتْ غلاديس من بيروت برفقة جاك. لقد كانت قد تركت السيّدة قصير، ولا أعرف ما إذا كان قد حصل أيّ سوء تفاهم بينهما.

Scanned with CamScanner

رأيتُ السيّدة قرطاس، فقالت لي إنّه ينبغي عليّ انتظار البروفسور باتش لمعرفة ما إذا كان بإمكان غلاديس البقاء معنا. كتبتُ رسالة إلى السيّدة قصير تمنيّت فيها أن لا يؤثّر أيّ سوء تفاهم بينها وبين غلاديس على علاقة الصداقة التي تجمعنا، وحمّلتُ الرسالة لجاك الذي غادر مجدّدًا إلى بيروت بعد العشاء. ليحفظه الله. وبالنسبة إلى بيرل، فهي بخير وتشعر بالسعادة. ليحفظها الله. أمّا سليم، فقد عاد من البلدة وأخبرني أنّ الياس بخير. ليحفظهم الله جميعًا، وليساعدني على حلّ موضوع غلاديس.. كلّ شيء سيسير بشكل جيّد، فالربّ سيساعدنا جميعًا.

20 أيّار (مايو)

مرّ النهار بسرعة بينما كان الجميع يشعر بالسعادة. وقد حضرت سيدار وحاوي وإيليني لرؤيتي.

21 أيّار (مايو)

كلّ شيء يسير بشكل جيّد. قابلتْ غلاديس جميع أصدقائها، وسوف تذهب إلى الشوير للقيام ببعض أعمال الغسيل والتنظيف من أجل والدها. ذهبتُ في الصباح لرؤية السيّدة قرطاس، فأعطتني بعض الأقمشة لكي أصنع منها ثيابًا لولدين فقيرين. كلّ الأشياء أصبحت غالية جدًّا. متر القماش القطنيّ الذي كان سعره شلنين ونصف الشلن أصبح اليوم بأربعة شلنات.

خلال فترة بعد الظهر، ذهبتُ إلى بيت مري لرؤية تلك الأمّ العجوز الحزينة والمفجوعة التي تدعى شفيقة (Shefeka). قالت لي: "لقد أخذ الربّ خليل وتركني هنا». لقد تقدّم بها العمر كثيرًا، فقلتُ لها إنّ الله وحده يعرف ما هو الأفضل بالنسبة إلينا.

Scanned with CamScanner

كان جميل يرافقني، فقمنا بنزهة جميلة سيراً على الأقدام، ورأينا العمّ والعمّة. لقد تقدّم العمر بالعمّ وأصبح عجوزاً بينما كانت العمّة لا تزال في مقتبل العمر، وكان ابنهما قد توفيّ منذ سنوات طويلة عندما كان في الرابعة عشر عامًا من عمره. إنّه عجوز إذن وهي ما زالت شابّة، فالزواج طمعًا بالمال لا يأتي دائمًا بالسعادة.

23 أيّار (مايو)

غلاديس تذهب إلى الشوير

ذهبتُ في الصباح لرؤية والدة أبريان التي لم تكن بحال جيّدة، بينما ذهبتْ غلاديس لرؤية الياس من أجل القيام ببعض أعمال الغسيل في المنزل. أمّا بيرل فقد كانت بخير، وذهبت إلى إليارا مع السيّدة بو كونلي التي كانت في غاية اللطف معها. تحدّثتُ أيضًا في الصباح مع السيّدة أبريان، فأخبرتني بأنّهم يخبزون ألفيْ رغيف لإطعام أكثر من سبعمئة شخص يوميًّا. ابن السيّدة ريك قتل في معركة قرب يافا. فليصبّر الله هذه السيّدة العزيزة التي فقدت الآن ابنها بعد أن كانت قد فقدت زوجها، وليضع نهاية عاجلة لهذه الحرب.

24 أيّار (مايو)

الخبز

عندما كنّا في المنزل الأوّل، كان جميل قد فقد رغيفًا من الخبز مخبّأً تحت وسادته. وبالأمس، وبينما كنت أقوم بتنظيف الغرف، رأيتُه يأخذ رغيفًا من تحت وسادة ميشال. سألتُه: «هل هذا الرغيف لك»؟ فاحمرّ وجهه وأجابني بالنفي، ثمّ طلبتُ منه أن يعيد الرغيف إلى مكانه، ففعل على الفور.

Scanned with CamScanner

في المساء، طلبتُ من ميشال والآخرين التوقّف عن عادة وضع الخبز تحت وساداتهم لأنّه ليس بإمكاني مراقبة الجميع. وعند العشاء، أبلغَنا جميل بأنّ أحدهم سرق رغيفًا من تحت وسادته، ولكنّ الجميع أنكروا أن يكونوا قد قاموا بذلك. وأنا أعرف أنّ جميل ولد شقيّ، فليسامحنا الله على أخطائنا. وبعد مرور بعض الوقت، أخذتُ جميل جانبًا وتحدّثتُ إليه بلطف. قلتُ له: «أنا لم أُخبِر السيّدة قرطاس بشأن رغيفك المسروق لأنّني لو فعلت، فسينبغي عليّ أن أُخبرها أيضًا بأنّك حاولت سرقة رغيف من تحت وسادة ميشال». ولم أكد أُكمل كلامي حتّى بكى جميل، ووعدني بأنّه سيكون ولدًا صالحًا. فليساعده الله.

25 أيّار (مايو)

موضوع فقدان أرغفة الخبز يتفاعل ويتسبّب بالكثير من المشاكل بين الأولاد. لقد كان ميشال يبيع صفيحة الطعام الخاصّ به مقابل الخبز، فتمكّن من تجميع سبعة أرغفة، قبل أن يتمكّن أحدهم من سرقة رغيف منها.

ماذا عساي أن أفعل؟ لقد طلبتُ من الجميع بالأمس عدم وضع الخبز تحت وساداتهم ولكن دون جدوى. وقد وصل الخبر إلى مسامع السيّدين قرطاس وأبريان إثر اتّهام ييلفي (Yelphy) بأنّها يقوم بالسرقة، فطلبا منّي مراقبة الجميع أثناء تناول الطعام وعدم السماح لأيّ شخص ببيع وجبته.

الأحد 26 أيّار (مايو)

اليوم العظيم

ليكن هذا اليوم يوم سلام لنا جميعًا. أخذتُ الأولاد إلى الكنيسة، فبدوا رائعين، وأعجبهم الأمر كثيرًا. وخلال فترة بعد الظهر، عقدنا "اجتماعًا

Scanned with CamScanner

إنجليزيًّا"، وتحدّث السيّد أوليفر حول ضرورة الإيمان بالأشياء الصغيرة التي تمرّ في حياتنا، وذلك من زاوية أنّ المؤمن بالأشياء الصغيرة هو مؤمن أيضًا بالأشياء الكبيرة.

الشكر لله على هذه الرسالة. لقد كان من الرائع حقًّا أن نرى كلّ هذه الوجوه الجميلة، وأن نستمع إلى الجميع بينما كانوا ينشدون ترتيلة السيّدة بوكرز المفضّلة: "الله سوف يحميك سريعًا".

عندما عدتُ إلى المنزل، وجدتُ أنّ غلاديس عادت من الشوير مع السيّد شيريدان نظرًا لأنّ شفيقة (Shefeka) كانت قد خسرت زوجها، ولديها أربعة أولاد. فليساعدها الله.

تناولنا العشاء، ثمّ راح الأولاد يصلّون إلى الرب. حماهم الله.

الأربعاء

الولدان الفقيران

حضر ولدان فقيران قبل فترة من الوقت ولم يكن لدينا أيّ ملابس لنقدّمها لهما، فما كان منّي إلّا أن قمتُ بغسل الملابس التي يرتديانها، وأشرفتُ على استحمامهما، فشعرا بالسعادة والارتياح، وأخبراني بأنّهما كانا دائمًا نظيفين عندما كانت والدتهما لا تزال على قيد الحياة. حماهما الربّ.

الخميس 30 أيّار (مايو)

كان يومًا حافلًا. أخذتُ جميع الأولاد لإحضار صوري، ثمّ قمت بتنظيف وترتيب المنزل، فبدا جميلًا، وكان الأولاد في غاية السعادة لرؤيته على هذا الشكل. وفي وقت لاحق، أحضر جورج وجميل بعض الخبز لتناوله مع الشاي.

Scanned with CamScanner

الأحد 3 حزيران (يونيو)

يوم الربّ

كنت مشغولة جدًا ولم يكن لديّ متّسع من الوقت للكتابة. لقد أصبح عدد الأطفال الذين أعتني بهم تسعة عشر طفلًا. كان من بينهم أطفال عاقلون، وكان من بينهم أيضًا طفلان أو ثلاثة أطفال أشقياء، وكنتُ أصلّي من أجلهم جميعًا. إنّهم أطفال تعساء. كانوا يحاولون دائمًا أن يكونوا جيّدين، ولكنّ الشيطان كان يتربّص بهم في الأوقات التي لم يكن بوسعنا مراقبتهم فيها.

كنت أطلب منهم لدى التوجّه إلى الكنيسة السير في صفّ واحد، ولكنّهم غالبًا ما كانوا يكسرون هذه القاعدة، ويتشاجرون مع بعضهم البعض، ثمّ يتصالحون، ثمّ يتشاجرون من جديد.

ليساعدني الربّ في أن أجعل منهم أولادًا أفضل، وأنا على يقين من أنّه سيستجيب لدعائي، خصوصًا وأنّنا كنّا نحتاج بالفعل إلى المزيد من الأسرّة والمزيد من الملابس... وها نحن نصلّي من أجل ذلك.

اليوم هو عيد ميلاد والدتي العزيزة، ولا أدري ما إذا كان من المقدّر لي أن أرى وجهها المحبّب مجدّدًا أم لا. يا إلهي كم كان أهلي لطفاء معي، وليحفظهما الله إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة. هذا ليس وقتًا جيّدًا للجميع. وأنا أعرف أنّهما في غاية القلق عليّ، فلا أخبار بيننا. وقد بعثتُ لهما سبع رسائل خلال الفترة السابقة ولكنّني لم أستلم منهما أيّ جواب.

الاثنين 4 حزيران (يونيو) 1917

نهضتُ في الصباح الباكر وقمتُ بتنظيف الغرف الثلاث. وفي الليلة الماضية، لم تكن هيلين تشعر بأنّها بخير، فأعطيتُها نصف رغيف من الخبز،

Scanned with CamScanner

وخبّأتُ النصف الآخر تحت وسادتي، ولكنّ أحدهم أخذه خلسة، كما تمّت سرقة رغيف آخر هذا الصباح.

لم أكن أعرف من يسرق الخبز. وقد حضر السيّد قرطاس في المساء وطلب من كلّ فرد تناول الرغيف الخاصّ به مع وجبة طعامه وعدم وضع أيّ خبز تحت وسادته. كما طلب من الأطفال الذين يشعرون بأنّ الرغيف الكامل كثير عليهم، وليس بإمكانهم تناوله، إبلاغه بذلك لكي يقوم بتخصيص نصف رغيف لهم، سيّما وأنّ الخبز أصبح مادّة نادرة في هذه الأيّام، وصارت له قيمة تعادل قيمة قطعة من الحلوى في السابق. والحمد لله دائمًا لأنّنا نحصل على الخبز.

في هذا اليوم، انضمّ إلينا أربعة أطفال جدد، فأصبح عددنا أربعة وعشرين. لقد كنّا نشكّل عائلة سعيدة بالفعل، رغم الشقاوة التي كان يظهرها بعض الأطفال بين الحين والآخر. ففي المحصّلة النهائيّة، كانوا جميعًا يحبّونني، ويستمعون إلى نصائحي. وكنتُ بدوري أبذل قصارى جهدي لتربيتهم على الحقّ، وذلك بمباركة الربّ الذي كان يساعدني دائمًا في أداء مهمّتي. وها أنذا أبذل دائمًا أفضل ما عندي في هذا المجال.

Scanned with CamScanner

الفصل الثاني عشر

6 حزيران (يونيو)

عيد ميلادي

قرأتُ للتوّ رسالة من صديقة عزيزة أخبرتني فيها عن امرأة فقيرة كانت قد فقدت زوجها، ثمّ فقدت بعد ذلك شقيقها الذي كانت تعتمد على مساعدته لها، فإذا بها تصل إلى درجة الإيمان بأنّ وفاة شقيقها ربّما كانت بمثابة إشارة لكي تتوكّل أكثر على الله الذي يعرف وحده ما هو الأفضل بالنسبة لنا، سيّما وأنّ جميع الذين يعتمدون على الله لا يمكن أن يسيروا في الاتّجاه الخاطىء، وأنّ الذين يسيرون مع الله عليهم الانتظار، وهو لن يتأخّر كثيراً عليهم.

استلمتُ هديّة من صديقتي العزيزة السيّدة قرطاس حفظها الله. لقد أرسلت لي بعض الشاي والدبس، إضافة إلى خمسة بياسترات. يا إلهي كم هي لطيفة معي. إنّها مسيحيّة مؤمنة وقامت بالكثير من أعمال الخير.

خلال فترة بعد الظهر، ذهبتُ لرؤية السيّدة شيريدان نظرًا لأنّ الدكتور عفش الله (Afshala) كان مريضًا جدًّا وأردتُ الاطمئنان على حالته. التقينا مع السيّد حاوي، وجرى بيننا حوار جميل حول رأفة الله بنا في هذه الأيّام، ثمّ أبلغَنا بأنّ الدكتور طنوس حضر من أجل رؤية شقيقه. كم شعرتُ بالسعادة لوجوده هنا، حفظه الله، فقد كان بمثابة الأب بالنسبة

Scanned with CamScanner

إلينا. لقد كان بدوره يشعر بالسعادة لوجوده هنا، ولأنّه سيقضي معنا حوالي أسبوعين، الأمر الذي يعني أنّنا سنجد فرصة للقائه بكلّ تأكيد.

شكرتُ الله على هذه المناسبة الجميلة التي تزامنت مع عيد ميلادي. وبالرغم من أنّني لم أكن أملك أيّ شيء لكي أقدّمه للأولاد في هذا اليوم، إلّا أنّني وزّعت عليهم قطعًا صغيرة من الخبز مطليّة بالدبس، فشعر الجميع بالسعادة، وليحفظ الله كلّ الأطفال.

الاثنين 9 حزيران (يونيو)

في الثامن من حزيران (يونيو) توفّي السيّد توفيق ويلدماير عند الساعة الثالثة. كان يعاني من حمّى التيفوئيد. وعلى الرغم من أنّ حالته كانت قد تحسّنت في الآونة الأخيرة، إلّا أنّه انتكس مجدّدًا، فتوفّي وتمّ دفن جثمانه في «مقبرة الأصدقاء» في برمانا. لم يكن قد تبقّى منّا إلّا عدد قليل فقط للمشاركة في مراسم الدفن. الدكتور طنوس كان قد حضر في إجازة لرؤية شقيقه. وقد سُعِدتُ بدوري لرؤيته. وكان من بين الحاضرين أيضًا كلّ من السيّد أبريان، وأنا، والسيّد ريكش، بالإضافة إلى عدد آخر من الأشخاص الذين لا أعرف أسماءهم. ولدى إجراء المراسم، رحنا ننشد بعض التراتيل باللغة العربية: «لترقد روحه بسلام». إنّه العبد الفقير. لقد رحل أخيراً، وها هو يرقد الآن بجوار أمّه وأبيه. فليرحمه الله.

في هذا الصباح، ذهبتْ غلاديس برفقة إحدى الفتيات إلى بيروت على أن تعودا في المساء. لا شكّ في أنّهما ستكونان منهكتان. أتمنّى لو كان بإمكان بيرل أن تأتي يومًا لرؤيتنا. الدكتور دراي جاء لزيارتنا يوم السبت وكان في غاية اللطف. لقد أصبح بإمكان غلاديس أن تحصل على طعامها هنا. الشكر لله على نعمته. ويا رب: ارسل إلى الياس ما يكفيه من طعام لكي يأكل.

Scanned with CamScanner

عزيزتي الآنسة كومنيتون

حضرتْ اليوم امرأة حاملة معها قطعة من الصابون ملفوفة بورقة من المستشفى كُتبتْ بخطّ يد الآنسة كومنيتون، فعرفت للتو أن الهدية منها، فسارعتُ إلى تقبيل اسمها ووضعتُ الرسالة على جهة قلبي. ليحفظ الله صاحبة هذا القلب الطيّب. لقد علّمتنا الكثير من الدروس والعبر عن ضرورة الإيمان باسم الخالق. يا إلهي كم كانت الآنسة كومنيتون لطيفة وجيّدة معي، وكم أحبّها.. ويا إلهي كم أنّ المسيح رعانا وحفظنا وساعدنا في هذه الظروف الصعبة، ليتمجّد اسمه.

الثلاثاء 13 حزيران (يونيو) 1917

المزيد من المشاكل

وصل الليلة الماضية طفلان من الشوير، وكان الوقت متأخّرًا لرؤية السيّد قرطاس بشأنهما، فسمحتُ لهما بالمبيت في غرفة الاستقبال. ولكن عندما حضر السيّد قرطاس في الصباح الباكر، سارع إلى التعبير عن انزعاجه لأنّني سمحت لهما بالمبيت قبل الكشف عليهما من قبل الطبيب.

ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك في وقت متأخّر من الليل؟

أخذتُ الطفلين إلى الدكتور غنون (Gannon)، فقال لي إنّ بإمكان الولد الصغير المبيت مع بقيّة الأولاد، ولكن لا ينبغي على البنت الصغيرة فعل ذلك نظرًا لأنّها مصابة بمرض يمكن أن يسبّب العدوى. وعلى هذا الأساس، عزلتُ البنت الصغيرة عن بقيّة الأطفال. لقد كنت أبذل قصارى جهدي لفعل الخير مع الجميع.

يوم أمس، ذهبتْ غلاديس إلى بيروت. جاك وبيرل بخير. والحمد لله على كلّ شيء.

Scanned with CamScanner

السبت 16 حزيران (يونيو) 1917

مشاكل على مدار الأسبوع

يبدو أنّ كلّ شيء لن يكون على ما يرام خلال هذا الأسبوع، ولكنّني أصلّي إلى الله لكي يسهّل أمورنا ويضعنا على الطريق الصحيح، وأنا واثقة من أنّه سيستجيب لصلوات المؤمنين به.

17 حزيران (يونيو) 1917

الدكتور دراي يزورنا

سمعتُ اليوم خبرًا عن وصول الدكتور دراي، فسارعتُ إلى التوجّه إلى الفندق من أجل رؤيته. انتظرتُ نحو ساعتين من دون أن أتمكّن من مقابلته بسبب انشغاله، فكتبتُ له ملاحظة سألتُه فيها ما إذا كان بإمكانه تأمين الصابون وبعض الأشياء الأخرى التي نحتاجها للمحافظة على نظافة الأولاد. وقد حضر لزيارتنا في المساء فور انتهائنا من تناول العشاء، فأوقفتُ الأطفال الذكور في صفّ، والإناث في صفّ مقابل، من أجل استقباله، وكان في غاية السعادة لرؤيتهم.

كان واضحًا أنّ عدد الأطفال كبير، فقال لي الدكتور دراي: «ماذا لو أرسلت لك المزيد»؟ قلت له: «سأكون سعيدة جدًّا بذلك». قال: «حسنًا.. سوف آخذ معي الأولاد الذين يبلغون من العمر ستّة عشر عامًا وأترك معك الفتيات اللواتي وصلن إلى السنّ نفسه».

كان الدكتور دراي في غاية اللطف، فسألتُه عمّا إذا كان بإمكانه تزويدي ببعض النقود لكي أشتري مكنسة وطنجرة وبعض الصابون، فأعطاني جنيهًا ونصف الجنيه. الحمد لله. لقد استجاب لصلواتي، وها هو تمجّد اسمه يسهّل لنا الحصول على كافّة احتياجاتنا.

بعد ذلك، ذهب الدكتور دراي لرؤية الأيتام العشرة، ووعد بيلفي

Scanned with CamScanner

(Yelphy) بأنّ شقيقتها الصغيرة ستكون معها قريبًا. لقد شعرتُ بالسعادة.. فها هي الأمور تتحسّن.. وليحفظ الله الدكتور دراي والبروفسور باتش على رعايتهما للأطفال الفقراء.

الحمّامات الحكوميّة

خصّصت الحكومة مكانًا عامًّا للعناية بنظافة الفقراء يتضمّن قصّ الشعر والاستحمام، فأخذتُ كلّ الأولاد إلى هناك. اثنان منهم لم يحتاجا إلى الاستحمام لأنّهما حافظا على نظافتهما، كما أنّنا كنّا نعتني من جهتنا بقصّ شعر الجميع، فتمّ إدخال البقيّة إلى الحمّام، كما تمّ إعطاؤهم ملابس نظيفة بعد إحراق الملابس التي كانوا يرتدونها.

لقد واجهتُ في هذا اليوم بعض المتاعب مع عدد من الفتيات اليافعات، وخصوصًا بعدما رفضت إحداهنّ الدخول إلى الحمام إثر شعورها بالخوف، ولكنّني سرعان ما تغلّبتُ على تلك المتاعب وأقنعتُ الجميع بالدخول.

واجهنا أيضًا في ذلك اليوم بعض أشكال المتاعب الأخرى. فقد طُلب منّا إرسال الأسرّة إلى المركز الحكوميّ من أجل الكشف عليها. وقد وافق الدكتور طنوس على ذلك، وقال إنّ الدكتور بوسين (Pussen) سيتحدّث إلى ممثّلي المركز لإطلاعهم على ما لدينا، وربّما سيتمكّن من تأمين بعض الملابس والأسرّة الإضافيّة لنا. وقد كتبتُ له بهذا الشأن. والله سوف يوفّر لنا كافّة احتياجاتنا.

ذهبتُ إلى السيّدة شيريدان للحصول على زيت الخروع نظرًا لأنّ هيلين كانت مصابة بالحمّى طيلة الأيّام الثلاثة الماضية. أرجوك يا الله اشفها بقدرتك وأنت الذي تؤمّن الطعام والمأوى لثمانية وعشرين طفلًا من الشوير. ليحفظ الله الصبيان والبنات.

Scanned with CamScanner

18 حزيران (يونيو) 1917

مستشفى برمانا

ذهبتُ لرؤية السيّد سبيريدون ولكنّه لم يكن في المستوصف، فقرّرتُ انتظاره، وفكّرتُ بالذهاب إلى حديقة المستشفى التي كانت الآنسة كومنيتون تعتني بها مع عدد من الأخوات. لقد كنّ يعتنين بالأزهار لدرجة أنّ الحديقة تبدو كأنّها معرض. أمّا الآن، فقد أصبحت عبارة عن برّيّة قاحلة: الأسوار مخلوعة، لا أزهار، وخروف نافق ولم يتبقَّ منه سوى العظام والرائحة الكريهة. لقد كانت مستشفى رائعة. أمّا الآن، فالنوافذ محطّمة، وتظهر منها صور المسيح المعلّقة على الحائط. تذكّرتُ جميع الصديقات العزيزات والأيّام الجميلة التي أمضيتها برفقتهنّ عندما كانت المستشفى نظيفة. ليحفظهنّ الله جميعًا ويعيدهنّ إلينا مجدّدًا.

لقد سئمنا انتظار الوقت ليمرّ ويمرّ طيلة السنوات الثلاث الماضية ولا نعرف كم ينبغي علينا الانتظار بعد. ولكن مهما يكن من أمر، يجب أن نحافظ على إيماننا.

الكثير من الأصدقاء الأعزّاء رحلوا إلى مثواهم الأخير ويرقدون هناك بسلام. وأنا أقرأ دائمًا من أجلهم هذه الصلاة:

«يا الله، نحن ملزمون معًا بروابط عطاء المحبّة. نصلّي إليك من أجل يوم من الحبّ الصافي. فلتحمنا من الغضب الذي يحرمنا من فرحنا مع بعضنا البعض. ولتقينا من الكلمات الحادّة التي يمكن أن تجرح أو أن تُخيف أو أن تسبّب المعاناة لأولئك الذين إليك يرسلون إشارات المحبّة. عسى أن لا تُعمي الأنانيّة عيوننا لنعرف متى تأتي إلينا الملائكة وتفرد أجنحتها لتحملنا إليك.»

ذهبتْ ييلفي (Yelphy) لاحضار شقيقتها جفرا (Gfra) من الشوير، وأخبرتني بأنّ الياس مريض ومصاب بالورم في الوجه والقدمين، وبأنّه جائع.

Scanned with CamScanner

يا إلهي... يجب أن أرسل له بعض الخبز، ولكن من أين يمكنني الحصول عليه؟ سأذهب لرؤية السيّدة قرطاس، فهي سوف تعطي غلاديس طعام ثلاثة أيّام، وأنا بدوري سوف أرسل له نصف حصّتي من الخبز، ليحفظه الله ويعافيه قريبًا. سأرسل غلاديس إليه أيضًا لمعرفة ما الذي أصابه، ولكنّني أعرف أنّه كان على هذه الحال الصيف الماضي، فهو يعاني من مشاكل في الكليتين. ليعينه الله.

لقد أرسلتُ إلى الياس بالأمس رغيفين مع إحدى النساء كما أعطتها يلفي (Yelphy) سبعة أرغفة، فأكلوها كلّها. هذه المرأة ترغب في إحضار أطفالها إلينا، ولكنّني لا أعرف ماذا سيقول الدكتور دراي بهذا الخصوص. أتمنّى أن يتعافى الياس بسرعة. في كلّ يوم هناك المزيد من المشاكل. أرجوك يا الله ضع نهاية عاجلة لمعاناتنا، فأنت وحدك تعرف كلّ شيء.

الخميس

والد السيّد قرطاس مريض، وعليه أن يذهب إلى بسكنتا، فغادر عند الساعة الواحدة. لقد كان رجلًا عجوزًا.

أعطتني السيّدة قرطاس علبة كبريت، ووعدتني بأنّها ستعطيني بعض الزيت لكي أتمكّن من إشعال قنديل لأولادي الذين كانوا يشعرون بالمرض. الحمد لله. لقد مرّ وقت طويل على آخر مرّة حصلتُ فيها على عود ثقاب أو أشعلتُ الضوء نظرًا لأنّ أسعار الكبريت والزيت كانت مرتفعة جدًّا.

الياس تحسّن اليوم مئة في المئة. السيّدة قرطاس ذهبت لشراء القمح. وكان السعر خمسين قرشًا للرطل الواحد. لقد تعلّمنا كيف نعيش من دون الكثير من الأشياء. لقد أعطانا الله درسًا أعتقد أنّنا كنا نحتاج إليه. فأنا أفكّر الآن لماذا بدأت هذه الحرب؟ أعتقد لأنّ الناس شعروا بأنّهم أذكياء وحاولوا التصرّف على أساس أنّهم يعرفون كثيرًا ويدركون كلّ شيء.

Scanned with CamScanner

إنّ الله يريدنا أن نكون بسطاء مثل الأطفال لنؤمن به ونعتمد عليه وحده.

رسالة إلى السيّدة حاوي

ذهبتُ لرؤية السيّدة قرطاس هذا الصباح. مطبخ الدكتور دراي لا يقدّم المساعدة للرجال، وإنّما للنساء والأطفال فقط. بعثتُ رسالة إلى السيّدة حاوي أطلب فيها أن تسمح لنا بقطع الخشب وبعدها يمكننا أن نسدّد ما لها بذمّتنا من أموال، ويبقى هناك القليل من أجل الياس. رجاءً يا الله. هل ستسمح لنا السيّدة حاوي بذلك؟ وحده الله يعرف أنّ القليل من القمح يبلغ سعره خمس ليرات من أجل إطعام ثمانية أشخاص.

21 حزيران (يونيو)

وصول غلاديس

وصلت غلاديس من الشوير هذا الصباح وأخبرتني أنّ والدها بخير.

السيّدة حاوي تحاول تسوية الوضع ولكنّها تريد ذهبًا. ذهبتْ غلاديس إلى بيت مري للحصول على رسالة من شفيقة (Shefeka). كلّ الأطفال بخير. لديّ الآن ثلاثة وثلاثين طفلًا لأعتني بهم، والمزيد على الطريق. لقد أرسل الله الطعام لهم.

ذهبنا إلى الكنيسة هذا الصباح، وأحضر السيّد أبريان أطفاله العشرة اليتامى. الحمد لله لأنّني اصطحبتُ معي أولادي. ليتمجّد اسم الربّ.

Scanned with CamScanner

الفصل الثالث عشر

26 حزيران (يونيو) 1917

زيارة البروفسور باتش

علمتُ اليوم أنّ البروفسور باتش سيأتي لرؤيتنا، ولكنّه لم يصل، فذهبتُ لمقابلته في الفندق، وكان في غاية اللطف، وطلب منّي أن أخبر الأولاد بأنّه سيأتي بعد بضعة دقائق. دعوتُ جميع الصبيان والبنات، فراحوا يغنّون له أغنية ترحيب، وكان مسرورًا بذلك. عرّفته على جميع العائلات. البعض منهم كانوا خمسة أولاد من دون أب وأم، والبعض الآخر من دون أب. لدينا عائلة من سبعة أولاد ليس لديهم أب، وتعيش أمّهم معهم. الجميع كانوا بخير، علمًا أنّنا كنّا نعاني من بعض النقص في الأسرّة والملابس. وقد وعد البروفسور باتش بالعودة يوم الجمعة، وأعتقد أنّه كان سعيدًا مع الأولاد.

يا ربّ ساعدني لكي أبذل قصارى جهدي من أجل المساعدة، وسهّل لنا الحصول على ما نحتاجه من ملابس.

28 حزيران (يونيو) 1917

الموفد الألمانيّ

كان الكلّ منهمكًا يوم أمس في العمل على تزيين الفندق استعدادًا لاستقبال الموفد الألمانيّ. وفي الصباح بعث لنا السيّد قرطاس رسالة يطلب

Scanned with CamScanner

منّا فيها الحضور على الفور. جهّزنا أنفسنا على عجل، ووصلنا لرؤيته في الوقت المناسب. وقد غنّى له الصبيان والبنات بعض الأناشيد، وكان سعيدًا بذلك.

بدا لنا رجلًا لطيفًا ومهذّبًا، وقد ترك لنا بعض الأموال لإنفاقها على الأطفال. الشكر لله على عنايته بنا، فهو وحده يعرف كلّ احتياجاتنا.

خلال فترة بعد الظهر، ذهبتُ لأودّع الدكتور فارنو ناميش. لقد كان يشعر بالأسى جرّاء سرقة الكثير من الأشياء من منزله. ليحفظه الله آمنًا، فقد كان بمثابة الأب للجميع.

أمّا الياس، فقد كان في وضع أفضل من السابق. فليحفظه الله ويوفّر له ما يحتاجه من طعام.

10 تمّوز (يوليو) 1917

منزل الصبيان والبنات القادمين من الشوير

أصبح لدينا اليوم منزلين جميلين أحدهما للصبيان والآخر للبنات. يا إلهي كيف ارتفع عددنا منذ ذلك اليوم الذي وصلنا فيه من الشوير قبل ثلاثة أشهر. لقد كنت وقتذاك بمعيّة أولادي الثلاثة وخمسة أطفال آخرين، حيث أمضينا الليلة الأولى في ملجأ كانوا يقدّمون فيه الطعام للفقراء، قبل أن نحصل في اليوم التالي على غرفة. وقد مكثنا هناك ثلاثة أسابيع، إلى أن قام أحد الأطفال بسرقة بعض الفاكهة من الأشجار الأمر الذي اضطرّنا للمغادرة، فذهبنا إلى غرفة أخرى ومكثنا فيها أسبوعًا كاملًا، ثمّ جاء الدكتور دراي وقدّم لنا منزلًا جميلًا. كنّا في غاية السعادة هناك. وبعد ستّة أسابيع، أعطاني الدكتور دراي منزلًا جميلًا للبنات، وبقي الصبيان في المنزل القديم.. ليحفظ الله كلّ الأطفال.

Scanned with CamScanner

15 تمّوز (يوليو) 1917

يوم الربّ

ذهبنا جميعًا إلى الكنيسة هذا الصباح. وقد جاءت والدة نابيرا من الشوير، كما أنّ والدة ليلوا قدّمت لي صحنًا من الطحينة، فاستمعتُ كثيرًا بأكله. وبالإضافة إلى ذلك، فقد حصلتُ اليوم أيضًا على حذاء جديد هو الأوّل الذي أقتنيه منذ وصولي إلى هذه البلاد قبل ثمانية أعوام. وبالرغم من أنّه كان حذاءً رجاليًّا، فقد فرحتُ به كثيرًا.

الاثنين 16 تمّوز (يوليو)

الجميع بخير. ليلوا تشعر بالتحسّن. أحد الأطفال أصيب بتقرّح جلديّ، فنامت شقيقته معه في الطابق الأرضيّ. أمّا أنا، فقد تسنّى لي أن أنام مع البنات في الطابق العلويّ.

الخميس 19 تمّوز (يوليو)

ليلوا ما زالت مريضة جدًّا، وراحت تنزف من أنفها بغزارة ومن دون انقطاع لمدّة نصف ساعة. طلبتُ المساعدة من الله. وقد حضر الدكتور بشارة لرؤيتها، ثمّ ما لبثْ أن شعرتْ بالتحسّن.

في هذه الأثناء، وصلت عربة الدكتور دراي وزوجته والسيّدة قرطاس، وكان جميع الأطفال بصحّة جيّدة.

الجمعة 20 تمّوز (يوليو)

حضر إلينا بالأمس كلّ من الدكتور نيلسون والدكتور والسيّدة كراوفورد. ليلوا شعرتْ بالمزيد من التحسّن بعد أن تناولت بعض اللبن. وبعد ذهابنا إلى الفراش، حضرتْ السيّدة كولينز لتخبرنا عن وصول سيّدة إنجليزيّة مع

Scanned with CamScanner

عدد من الأطفال، فقمتُ بترتيب الأمور على أفضل وجه ممكن. لم أكن أشعر بأنّني في حالة جيّدة منذ الصباح، ولذلك ذهبتُ للنوم باكرًا. وقد حلمتُ بأنّني كنت برفقة شقيقتي عند نهر «وانغانوي» في نيوزيلندا، وهو المكان الذي أمضيتُ فيه السنوات الأولى من عمري. وفي تفاصيل الحلم رأيتُ أنّنا أضعنا طفلين بين ضفّتي النهر، وكنتُ أبكي بشدّة أثناء محاولة العثور عليهما. ثمّ جاءت أمّي وطلبت منّي أن أصلّي من أجلهما لأنّ الله سوف يسمع استغاثتهما، ففعلتُ، إلى أن حضر أحد الأشخاص ليخبرني بأنّه تمّ العثور على الطفلين، وبأنّهما الآن عند السيّدة براون. فسارعتُ بالذهاب إليهما برفقة والدتي، ووجدناهما بخير. وقد راحت والدتي تخبر الجميع كيف كنت أصلّي من أجل الطفلين وكيف استجاب الله لصلاتي. الحمد لله، فهو وحده يعرف ما هو الأفضل لنا.

25 تمّوز (يوليو)

ذهبتُ هذا الصباح إلى المستشفى برفقة ليلوا وألبرت. كان المكان جميلًا ونظيفًا، ولا شكّ في أنّنا سنكون بخير هنا في القريب العاجل. لقد كنت أشعر بالتعب الشديد وأحتاج إلى بعض الراحة. الحمد لله. في الصباح أيضًا، حضر الدكتور دراي والبروفسور باتش لرؤيتي، وكان جميع الأطفال بخير.

الخميس 26 تمّوز (يوليو)

أنا ميريام بو صادر، أترك أولادي برعاية الدكتور دراي والبروفسور باتش. أريد لكلّ فرد منهم أن يتعلّم التجارة وأن يكون صادقًا وأمينًا. وأريد من زوجي أن يقوم ببيع بعض العقارات التي يملكها لكي يهتمّ بنفسه.

ميريام بو صادر (كُتبت قبل المغادرة إلى المستشفى)

Scanned with CamScanner

27 تمّوز (يوليو)

غادرتُ المستشفى اليوم وعدت إلى المنزل. ومن الرائع حقًّا أن يعود المرء إلى بيته. ليحفظ الله الأولاد الأعزّاء. لقد شعروا بالسعادة لدى رؤيتي. ليلوا ما زالت هناك مع فتاتين أخريين.

السبت 28 تمّوز (يوليو)

كان يومًا حافلًا. وفي المساء زارتنا السيّدة دراي، ودار بيننا حديث جميل، واتّفقنا على أن أزورها يوم الاثنين لأحصل على بعض الكتب.

الأحد 29 تمّوز (يوليو)

ذهبنا إلى الكنيسة. هيلين لم تكن تشعر بأنّها على ما يرام. ليلوا ورافا (Raffa) حضرتا إلى المنزل، وكان جميلًا أن نمضي الوقت مع بعضنا البعض. الدكتور دراي حضر أيضًا. الشكر لله على رعايته لنا.

2 آب (أغسطس)

عاد جاك إلى المنزل وكنت في غاية السعادة لرؤيته. يا إلهي كم أحبّ هذا الولد العزيز، حفظه الله. الياس بخير. غلاديس والسيّدة بيرل ذهبتا إلى بيروت برفقة جاك، ومن المقرّر أن يعودوا بعد يومين. وقد حضر اليوم السيّد والسيّدة كراوفورد لرؤيتنا.

3 آب (أغسطس)

عيد ميلاد جاك

جميع الأولاد بخير، ولكنّني شعرت بالأسف بسبب سرقة الـ "غرامبيس"، خصوصًا وأنّني كنت أجمّعهم من أجل السيّدة دراي والسيّدة قرطاس.

Scanned with CamScanner

من سرقهم يا ترى؟ وحده الله يعرف كلّ شيء.

5 آب (أغسطس)

ذهب الياس وجاك إلى عاشرين وأحضرا معهما بعض الإجاص والثوم والبصل والعنب. وفي المساء علمنا من كليفي وزوجته أن الياس أخذ الكثير من البصل، وعندما علم الجنود بذلك قاموا بجلده في الشارع. فليسامحهم الله على فعلتهم.

8 آب (أغسطس)

إنّه يوم حزين. الفتيات كنّ مشاغبات للغاية: ماري، ليلوا، وناسلو (Naslow)، فشعرتُ بالمرض إزاء ذلك. ليساعدهنّ الله ويجعلهنّ هادئات.

جاك عاد بدوره إلى بيروت وسوف نفتقده كثيراً. هيلين تشعر بالتحسّن اليوم بعد أن كانت تعاني من الإسهال على مدى نحو أسبوعين، وكنّا نخشى حقًّا أن نفقدها. الحمد لله لأنّها تتحسّن.

10 آب (أغسطس)

إنّه يوم حافل. ذهبتْ هيلين إلى المستشفى، أمّا أنا فقد اجتمعتُ مع الدكتور دراي في الصباح. سألني عن الفتيات، فأخبرته بأنّ ناسلو(Naslow) لم تعد تشاغب، فقرّر أن يطرد ماري نوفل وليلوا نمر. إنّه إنسان طيّب ولكن ينبغي عليه أن يكون حازمًا.

عند الساعة الخامسة مساءً رأينا في السماء جسمًا طائرًا راح يرمي بعض الشعلات المضيئة. لقد فرح الأولاد كثيراً بما شاهدوه، عسى أن يكون ذلك إشارة سلام.

Scanned with CamScanner

الأربعاء

حضرتْ السيّدة دراي في الصباح، وكان جميع الأولاد بخير. أمّا بقيّة النهار فقد كانت روتينيّة.

Scanned with CamScanner

الفصل الرابع عشر

28 أيلول (سبتمبر) 1917

وصول الطفلة ميمي

لقد مرّ نحو شهر من دون أن أتمكّن من تدوين أيّ ملاحظة نظرًا لأنّني كنت في المستشفى لمدّة أسبوعين، وعندما عدتُ إلى المنزل، لم أجد الوقت اللازم للكتابة. ولكن الحمد لله لأنّ حالتي تحسّنت الآن وأصبح بإمكاني الاعتناء بالأولاد.

أثناء غيابي، كانت هناك ثلاث نساء قمن بالتناوب على العناية بالصغار. والآن أصبح لدينا 22 طفلًا، وهناك امرأة تقوم بمساعدتي في عملي.

بعد مرور يومين على عودتي إلى المنزل، وبينما كنت على وشك الذهاب إلى الفراش، أحضرتْ مساعِدتي طفلة صغيرة ووضعتها إلى جانبي في السرير. قالت لي إنّ الآنسة ليلنيا (Lelhniah) وجدت هذه الطفلة الصغيرة على الطريق، فقامت بإعطائها حمّامًا وألبستها ثيابًا نظيفة وأحضرتها إلينا. ليحرسها الله، فنحن سنهتمّ بها بالتأكيد. لقد كانت تعيش معنا منذ مدّة أسبوعين دون أن نعرف أيّ شيء عنها. إنّها طفلة جميلة تبلغ نحو عام ونصف العام من العمر. وقد نادتني منذ البداية: «ماما»... وهي تلازمني أينما ذهبت، حتى أنّها تسارع إلى الجلوس قربي حينما أجلس على الكرسيّ.

Scanned with CamScanner

29 أيلول (سبتمبر) 1917

مرّ جاك الليلة الماضية أثناء توجّهه في طريقه إلى بيروت. يا إلهي كم أحبّه.. ليحرسه الله ويبقيه آمنًا وسالمًا. وقد أبلغني جاك أنّ الياس مريض، فسألتُ السيّد دراي ما إذا كان بإمكاني الذهاب لزيارته، فوافق على ذلك.

1 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

غادرتُ برمانا مع 11 صبيًّا وتوجّهنا إلى الشوير لمدّة ثلاثة أيّام. كانت مسيرة طويلة ولكنّنا استمتعنا بها نظرًا لأنّ ذلك اليوم كان جميلًا.

كان الياس مريضًا بالفعل منذ ثلاثة أيّام ولم يكن لديه أيّ ماء صالح للشرب. وقد عبّر عن سعادته لرؤيتي. أحضرتُ له الماء، ثم قمتُ باستدعاء الطبيب للكشف عليه. وكان الجميع سعداء لكوني موجودة بينهم. ليحفظ الله كلّ أهالي الشوير. دعوتُ بعض الناس للقدوم إلى برمانا لرؤية كلّ ما يفعله الدكتور دراي من أجل أبناء الشوير، وطلبتُ منهم أن يشكروه على لطفه مع أبنائهم، وكذلك أن يبادروا بالتبرّع ببعض القروش لمساعدة أبناء الشوير على أن أجمعها منهم وأسلّمها إلى الدكتور دراي.

6 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

ذهبتُ مع الآنسة بيرلي إلى المنزل الجديد. وكان الدكتور دراي في غاية اللطف معنا. لقد طلب منّا أن نفرز الأطفال المصابين بالتهابات في العيون عن الآخرين الذين هم في حال أفضل، فأخذتُ الصبيان والبنات المعافين إلى المنزل الجديد وأمضينا بفرح ساعات طويلة هناك. إنّه من الرائع حقًّا أن أكون مع الآنسة بيرلي. ليحفظها الله.

عادتْ غلاديس من المستشفى إلى البيت وهي اليوم في حال أفضل. لقد أصيبت بالحمّى. هاري بدوره ذهب إلى المستشفى بسبب إصابته

Scanned with CamScanner

بالحمّى.. الملاريا تنتشر في كلّ مكان. وفي اليوم التالي، أُدخِلتْ الآنسة بيرلي إلى المستشفى أيضًا.

8 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

صلاة للربّ

الربّ يلطف بنا، فقد أعاد لي غلاديس إلى المنزل وأصبح بإمكانها مساعدتي. لقد عانيتُ من الكثير من المشاكل، وكنت أحاول دائمًا القيام بعملي على أكمل وجه، بالرغم من إرهاقي الشديد وحاجتي الملحّة إلى النوم لساعات أطول. كان يتراءى لي أحيانًا أنّني لست قادرة على إسعاد الجميع، فالآنسة سعيد (Said)، على سبيل المثال، غالبًا ما كانت ما تنتقده. وعلى أيّ حال، ها أنذا أواصل بذل قصارى جهدي في عملي.

قبل حوالي تسعة أيّام، سألني الدكتور أوترجي (Utergeh) عمّا إذا كانت الممرّضات تأتين بشكل دوريّ للكشف على عيون الأطفال، فقلت إنّني لم أرَ أيًّ منهنّ خلال اليومين الماضيين، باستثناء شقيقة الآنسة سعيد التي لا أعرف اسمها. ويبدو أنّ الدكتور أساء فهمي، فسارع بالذهاب لتوبيخ الآنسة سعيد والآنسة سلمى، دون أن أعرف أيّ شيء عن هذا الأمر إلّا بعد مرور أسبوع كامل. فكّرت في التحدّث إلى الدكتور بهذا الخصوص، ولكنّني كنت أنسى باستمرار نظرًا لوجود الكثير من المواضيع الأخرى المتعلّقة بالأطفال التي ينبغي عليّ أن أطلعه عليها. وفي أيّة حال، واظبتُ على الصلاة لكي يساعدني الربّ على أداء عملي بالشكل الذي يرتاح له الجميع.

13 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

عاد هاري إلى المنزل وهو يشعر الآن بأنّه أفضل. وكنت قد رأيتُ الليلة الماضية حلمًا غريبًا وهو أنّني كنت أقشّر التفّاح مع عدد من النسوة..

Scanned with CamScanner

أكلتُ بعضًا منه، ولكنّني كنت أحتاج إلى بعض الطحين لكي أخبز بعض الأرغفة. بكيتُ بشدّة ورحتُ أصلّي إلى الربّ لكي يرسل لنا بعض الطحين. وفي الصباح، أرسل لنا الله، يتمجّد اسمه، كلّ ما نحتاج إليه. فعندما ذهبتُ لإحضار الحليب من أجل الأطفال، وجدتُ أربعة جِمال محمّلة بأكياس الطحين.. الحمد لك يا الله.

في هذا اليوم أيضًا عادت السيّدة بيرلي من المستشفى إلى المنزل، كما أنّ ماري نوفل عادت من بيروت. لقد فقدتْ شقيقتيها هناك، وأصبحتا في ذمّة الله.

Scanned with CamScanner

الفصل الخامس عشر

24 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

بيرل وعرض الزواج

كنّا جميعًا منهمكين بأعمال الصباح عندما دخل علينا شابٌ مع والدته ليبادر بسؤالي على الفور: «هل أنت الستّ ميريام والدة لولو»؟ أجبته: «نعم».. ثمّ قال لي إنّه تعرّف على بيرل (لولو) خلال فصل الصيف، وسألني عمّا إذا كنت أقبل بزواجه منها. قلت له: «إذا كانت بيرل تحبّك فأنا موافقة.»

كان رجلًا جيّدًا. وعلى هذا الأساس، بعثتُ رسالة إلى الياس طالبة منه الحضور، فجاء إلينا، وتعرّف على الرجل وأمّه، قبل أن نتوجّه معًا إلى بيروت، حيث بدأنا الرحلة سيرًا على الأقدام بين الجبال الرائعة، إلى أن تمكّنّا من العثور على عربة خيل.

وصلنا إلى بيروت وصعدنا إلى «الترام». كان الجميع يرغبون بالتوجّه إلى المنزل، ولكنّني رفضتُ، وطلبتُ منهم الانتظار ريثما أتوجّه لرؤية بيرل. وبالفعل ذهبتُ بمفردي لرؤية ابنتي، وكانت تستعدّ للخروج من أجل تناول العشاء مع عدد من الأصدقاء. سألتُها: «هل تحبّين جورج شاكر»؟ فأجابت: «لا».. ثمّ استطردتْ سائلة: «هل هو موجود هنا»؟ فأجبرتُها بأنّه حضر إلينا وطلب يدها للزواج. فقالت لي: «أنا لا أرغب بالزواج من

Scanned with CamScanner

أحد، ولا أريد أحدًا سواك يا أمّي». فطلبتُ منها أن تذهب معي لتخبره ذلك بنفسها. وهذا ما حصل. وقد كان الشاب في غاية الحزن عندما سمع بالرفض، كما أنّني شعرت بالحزن أيضًا من أجله.. ولكنّنا سلّمنا أمرنا لله.

في ذلك المساء أصيب الياس بالحمّى. وقد ذهبنا للمبيت في منزل الستّ ماري، فاستقبلنا الجميع على أحسن وجه. وفي الصباح، ذهبنا لرؤية السيّدة دراي بينما كانت طريحة الفراش بسبب إصابتها بنزلة برد شديدة، ولكنّنا أمضينا وقتًا ممتعًا، وتحدّثنا عن صديقاتنا القديمات مثل الآنسة كومنيتون والسيّدة كلارك. وعرفت في ذلك النهار أنّ السيّدة كلارك توفّيت، فشعرت ببالغ الحزن والأسى عليها، سيّما وأنّ الجميع يعلم كم أنّها كانت لطيفة، هي والآنسة كومنيتون، مع الجميع.

بعد ذلك ذهبتُ لرؤية السيّدة باتش في منزلها الجديد والسيّدة دال في المستشفى، فأعطتني كلّ منهما بعض الشاي. ثمّ ذهبتُ لأودّع أولادي جاك وبيرل، قبل أن نبدأ رحلة العودة من بيروت إلى الجبل في الصباح الباكر. ليحفظ الله كلّ الأولاد.

28 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1917

جاء الياس لزيارتنا وأمضى معنا يومين، فاستمتعنا جدًّا بزيارته، وكان ممتنًّا لرؤية الأولاد بخير. واليوم قمنا بتوزيع برتقالة على كلّ طفل من الأطفال الذين نعتني بهم، والذين أصبح عددهم 140 طفلًا.

3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

مشاكل

كانت الطفلة ميمي بخير في الصباح الباكر، ولكنّ الطبيب طلب منها تناول الحليب، فما كان منّي إلّا أن سارعتُ بالذهاب لإحضاره. وفي

Scanned with CamScanner

الطريق التقيتُ مع السيّدة قرطاس والسيّد أبريان وكانا غاضبين. وقد قالت لي السيّدة قرطاس إنّ الطبيب ليس راضيًا عن حالة الأطفال، وإنّه عبّر لها عن اعتقاده بأنّهم لا يأكلون الخبز المخصّص لهم، ولذلك فإنّهم لا يتمتّعون بصحّة جيّدة.

لقد كنت حريصة دائمًا على الإشراف على نظافتهم والتأكّد من تناولهم كامل وجباتهم. ولكنّهم يعانون من التهابات في العيون منذ فترة طويلة، كما أنّ بعضهم أُصيبوا بالإسهال، علاوة على أنّ اثنين أو ثلاثة منهم أُصيبوا بالحمّى. وقد كنت أبذل قصارى جهدي من أجلهم وأصلّي إلى الله لكي يظهر الحقّ.

في اليوم التالي، قابلتُ السيّدة قرطاس وسألتُها عن الأمر الذي تقصده من خلال إبلاغي بملاحظة الطبيب، فقالت لي إنّها لم تقصد أبدًا اتّهامي بأنّني لا أقدّم الخبز إلى الأطفال، ولكنّها أرادت الإشارة إلى أنّ إحدى جاراتنا تتوفّر لديها كميّات كبيرة من الخبز دون أن تصرّح عن مصدرها، الأمر الذي يثير الشكوك حول ما إذا كان الأطفال يبادلونها خبزهم بأشياء أخرى يحتاجونها. ولكنّني كنت متأكّدة من أنّ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يحدث. يا إلهي أبعِد الشيطان عن عبادك الفقراء الذين يعيشون بإرادتك وأرشدهم إلى الطريق المستقيم.

6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

التهابات جلديّة

كان لديّ ثلاثة أطفال أُصيبوا بالتهابات جلديّة، ولكنّ حالتهم تحسّنت فيما بعد، قبل أن تسوء مجدّدًا. وقد سارع الطبيب بأخذ الفتاة الوحيدة المصابة من بينهم. وسرعان ما أُصبتُ أنا وطفلتي وغلاديس وهاري بعوارض الحكّ، فتمّ نقلنا إلى المستشفى حيث أُعطينا بعض الأدوية، ولم

Scanned with CamScanner

نكن نعلم كم من الوقت سنمضيه هنا. إنّ كلّ شيء يحدث بإرادة الله، وهو وحده يعرف ما هو الأفضل لنا.

10 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

نصف رغيف

تلقّينا عند الساعة التاسعة صباحًا خبرًا سيّئًا مفاده أنّ كلّ كميّة الطحين التي أحضرها الدكتور دراي تمّت سرقتها، الأمر الذي وضعنا أمام ضرورة فرض نظام للتقشّف عن طريق تقديم نصف وجبة لكلّ فرد. وقد طلبتُ من الجميع الصلاة إلى الله وشكره على كلّ شيء.

17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

الرسالة الملطّخة بالدم

عندما كنت في بيروت في وقت سابق من هذا العام، ذهبتُ لزيارة منزل صديقة لي، وكان أحد أبنائها قد درس الطبّ وعمل على مدى عدّة أشهر في صفوف الجيش التركيّ.

وقد أراني الابن رسالة ملطّخة بالدم، قال لي إنّه عثر عليها في ملابس أحد الجنود الإنجليز الذين قُتلوا خلال المعارك.. وكانت في الحقيقة رسالة حبّ كتبها على إيقاع نبض قلبه النظيف.

الأحد

رغيف لكلّ فرد

لا أخبار.. لقد أحضروا هذا الصباح ثلاثة أرباع الرغيف لكلّ طفل، ورغيف كامل لكلٍّ من الكبار والنساء، فرُحنا نصلّي لكي يقرّب الله الموعد الذي سنتمكّن فيه مجدّدًا من الحصول على رغيفين مع كلّ وجبة. إنّنا

Scanned with CamScanner

نؤمن بالله وهو لن ينسانا وسيوفر لنا كلّ احتياجاتنا. وليحفظ الله الدكتور دراي وزوجته.

كانت تعمل لدينا ممرّضة تدعى الآنسة لولو نونون (Nonnon). وقد جاءتني هذا الصباح بفكرة مثاليّة، إذ أحضرت لي حقيبة صغيرة تحتوي على بعض فتّات الخبز القديم التي كانت قد احتفظتْ بها لوقت الشدّة، وأعطتني بعض الجبنة وبعض الزيتون، فقمتُ بتوزيعها على الأطفال، كما أنّني أكلتُ معهم. وبالرغم من أنّني لم أستمتع بالطعام نظرًا لأنّ الخبز أصبح ناشفًا ويابسًا، إلّا أنّ الأمر كان بمثابة درس للجميع، مفاده أنّنا يجب أن نحفظ دائمًا نعمة الله وأن لا نقوم بالتبذير بها. الحمد لله دائمًا.

بالأمس، أخذتُ الأولاد للاستحمام ثمّ وضعتُ على أجسامهم المرهم الخاصّ بتخفيف الالتهابات الجلديّة. بعضهم كانت حالته سيّئة، وبعضهم كانت إصابته طفيفة، وبعضهم كان يعاني من التقرّحات. مساكين هم هؤلاء الأطفال. لقد عانوا كثيرًا بينما كنت أضع المرهم على أجسامهم.

أمّا الطفلة ميمي، فقد تحسّنت حالتها وأتمنّى أن تبقى على قيد الحياة.

لقد أخبرني أحد الشبّان عن الطريقة التي كانوا يعيشون فيها في قريته، وقال لي إنّهم عندما حاولوا الفرار، كان أحدهم يتحدّث اللغة التركيّة، وقام بالسباحة نحو قارب كان راسيًا في عرض البحر. ولكنّهم واجهوا أوضاعًا صعبة بعد أن سلّط الجنود الأتراك الأضواء الكاشفة عليهم، إلى أن ساعدهم الله وتمكّنوا من النجاة.

الجنازة الإسلاميّة

يحفرون القبر على عمق بسيط ثمّ يرصفون الحجارة حوله، ويخصّصون مكانًا للرأس فوق قطعة خشبيّة، قبل أن يضعوا الجثّة في الحفرة ويطمرونها بالتراب.

Scanned with CamScanner

الفتاة الدرزيّة

أعرف فتاة درزيّة جميلة تدعى شفيقة (Shefeka) تلقّت دراستها في مدرسة برمانا التي كانت السيّدة كلارك قيّمة عليها. ليحفظها الله، فجميع البنات يتحدّثن عنها بالخير.

كانت شفيقة (Shefeka) قد تزوّجت في سنّ مبكّرة من رجل متزوّج أصلًا ولديه ولدان أكبر منها سنًّا، وسكنت مع والدة زوجها وولديه. الزوجة الأولى كانت قد «رُحّلت» إلى منزل أهلها دون أن تكون قد اقترفت أيّ ذنب.. هكذا هي الحال هنا. تُرحّل الزوجة لكي يتمكّن الرجل من الزواج مجدّدًا.

بعد فترة وجيزة، سافر الزوج إلى أوستراليا وأمضى هناك خمسة أعوام. وعندما عاد، وجد أنّ شفيقة (Shefeka) كانت قد وضعت له طفلة جميلة أصبح عمرها أربع سنوات. وعوضًا عن أن يمارس واجباته كأب، راح يضرب زوجته بقسوة. وفي إحدى المرّات، ذهب إلى بيروت لمدّة ثلاثة أيّام، وعندما عاد، حاول طرد شفيقة (Shefeka) من المنزل لأنّه كان يريد، ببساطة، أن يتزوّج مجدّدًا، ولكنّها حاولت التعالي على جروحها لأنّها لا تريد أن تخسر ابنتها الصغيرة. يا إلهي كم أنّ شفيقة (Shefeka) مسكينة في هذه الحياة وكم مرّة بكت أمامي من شدّة آلامها، ساعدها يا الله.

الأربعاء

ما زالت حصّتنا من الخبز مقتصرة على رغيف واحد لكلّ فرد.. الحمد لله على كلّ شيء. كيف ستنتهي الأمور؟ لا أحد يعرف.. وقد تسلّمت رسالة اليوم من الياس أخبرني فيها أنّ أحدهم قام بسرقة كلّ النقود التي كانت بحوزته.. فليساعده الله هذا الشتاء.. ماذا عساي أن أفعل؟ وحده الله يعرف كلّ شيء.

Scanned with CamScanner

الفصل السادس عشر

13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

ذهبتُ السيّدة بيرلي إلى بيروت والتقتْ مع جاك وبيرل، وعندما عادت، أرسل لي جاك معها 45 قرشًا لكي أعطيها إلى ابن السيّد مارشال، ففعلتُ.

كان جاك يحاول أن يجد عملًا للياس في بيروت، وكنتُ آمل حقًّا أن يتمكّن من ذلك لكي يكون قادرًا على تجنّب ويلات فصل الشتاء هنا في الجبل. الكثير من الأمور الغريبة كانت تحصل في بيروت، فأرجوك يا الله أن تضع حدًّا لهذه الحرب الوحشيّة. المعاناة وصلت إلى حدّ لا يطاق، ولم يعد لدينا حتّى ما يكفينا من ملابس لكي نرتديها. فثياب الأطفال ممزّقة، والأقمشة القطنيّة غالية جدًّا ولا أعرف كم يبلغ سعرها في الوقت الحالي. أمّا فيما يتعلّق بالطعام، فإنّنا ما زلنا نتناول رغيفًا واحدًا في كلّ وجبة.. فليكن الله بعوننا.

25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917

أربعة أسابيع فقط على عيد الميلاد

مرّت ثلاث سنوات ونصف السنة منذ أن فقدنا أصدقاءنا الأعزّاء الذين رحلوا بعيدًا. والأسبوع الماضي، أخبرني السيّد أبريان بأنّني سوف أستلم رسالة من الآنسة كومنيتون بحلول عيد الفصح.. يا إلهي كم جميل أن

Scanned with CamScanner

يكون هذا الأمر حقيقة. لقد أُحبِطنا مرّات عدّة، ولكنّ الشكر لله على إطالة عمرنا.

علمتُ أنّ الياس أصابته الحمّى وهو يعاني منها كلّ ليلة. فيا ربّي، ماذا عساي أن أفعل له؟ ليحفظه الله سالمًا.

الشكر لله.. لقد أصبح بإمكاننا الحصول مجدّدًا على رغيفين كلّ وجبة. الشكر لله على محبّته لنا.

2 كانون الأوّل (ديسمبر) 1917

ذهاب الياس إلى بيروت

تلقّيتُ هذا اليوم رسالة من جاك أخبرني فيها أنّه وجد عملًا للياس، فسارعتُ بالذهاب يوم الجمعة إلى الشوير بالرغم من الصعوبات التي واجهتني في الحصول على إذن بذلك من الطبيب والسيّد فريد غريهام. وهكذا بدأتُ رحلتي عند الساعة التاسعة والنصف صباحًا. ونظرًا لأنّني لم أكن أعرف الطريق جيّدًا، طلبتُ من الله أن يرسل لي أيّ شخص لكي يرشدني إلى الوجهة المؤدّية إلى الشوير. مشيتُ في البداية بمفردي، ثمّ انضمّت إليّ امرأة قادمة مع طفلها من بيروت. تبادلنا أطراف الحديث حول الحرب ورعاية الله لنا إلى أن وصلنا إلى النقطة التي افترقنا فيها، فتابعتُ السير بمفردي مجدّدًا. بعد ذلك وصلتُ إلى مفترق وكان من الصعب عليّ تحديد الوجهة الصحيحة. نظرتُ إلى الخلف، فإذا بي أجد امرأة أخرى تمشي باتّجاهي. انتظرتُها، ولمّا التقينا، علمتُ منها أنّ منزلها لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن الشوير، فشعرتُ بالسعادة حيال ذلك، ووصلتُ إلى منزلي بأمان. الياس بدوره كان سعيدًا برؤيتي، وخصوصًا عندما عرف أنّ جاك وجد له عملًا في بيروت. الشكر لله دائمًا، فلماذا ينبغي علينا أن نقلق طالما أنّ الله قريب منّا.

Scanned with CamScanner

يوم السبت، كنت منهمكة بأعمال الغسيل والتنظيف وتجهيز حقيبة الياس. ويوم الأحد، باشر الياس رحلته إلى بيروت بعد أن مرّ ببرمانا من أجل رؤية الأولاد.

في تلك الأثناء، رحتُ أوزّع أثاث المنزل على منازل كلّ من بو فارس وسليم ونعمة الله وخليل بما في ذلك الأسرّة والمقاعد والصناديق. ولم يكن الأمر بالمهمّة السهلة، خصوصًا أنّ الجميع راحوا يتنازعون على ما سوف يجنونه من أثاث منزلنا، وهو ما أدّى إلى تغيير طبيعة نظرتي حيال الناس هنا قياسًا بما كانت عليه الحال خلال الأيّام الأولى التي أعقبت وصولي، عندما كنت أعتقد أنّ جميع الناس لطفاء في هذه البلاد. وفي أيّة حال، أنهيتُ مهمّتي يوم الأحد ليلًا، وذهبتُ للنوم في منزل سليم، قبل أن أنطلق عائدة إلى برمانا في صباح اليوم التالي.

الأحد التالي

إنّه يوم هادىء، ولكنّني لم أكن أشعر بأنّني بخير. فقد كان الإحباط يلازمني منذ ساعات الصباح.

الاثنين

ما زلت مريضة.

Scanned with CamScanner

الفصل السابع عشر

حلمتُ بوصول المسيح

رأيتُ الليلة الماضية حلمًا جميلًا. حلمتُ بأنّني بينما كنت أقف في الخارج، شاهدتُ المسيح يهبط من السماء في أشعّة من نور جميل، ثمّ راح يمشي في حديقة تقع بالقرب من منزلنا، وكنت في غاية السعادة لرؤيته.

كنت أحمل طفلتين بين ذراعيّ: ميمي وطفلة أخرى، فقدّمتهما إليه، ونظر إلينا برأفة، قبل أن تسارع الأمّهات بالتوجّه إليه بفرح مع أبنائهنّ، وكان الجميع سعداء لرؤيته.

وفاة الطفلة ميمي

كانت الطفلة ميمي تدبدب على الأرض محاوِلة الوصول إليّ، ولكنّ البعض قالوا لي إنّني مرهقة للغاية، ثمّ وضعوها في السرير. لقد كنت مرهقة حقًّا، ولكنّني لم أتمكّن من النوم. وفي صباح اليوم التالي، أخذتُ طفلتي والطفلة ميمي للاستحمام، وشعرتُ بالأسف لأنّ ميمي لم تكن تبدو في حال جيّدة قياسًا بما كانت عليه قبل ذهابي إلى الشوير.

لا أذكر التاريخ جيّدًا، ولكنّني أعتقد أنّ غلاديس دخلت عليّ يوم السادس من كانون الأوّل (ديسمبر) وقالت لي بحسرة: "سوف تشعرين بالحزن الشديد يا أمّي، فقد توفّيت الطفلة ميمي."

Scanned with CamScanner

يا إلهي كم أنّ هذا الخبر محزن بالنسبة إليّ. لقد اعتنيتُ بالطفلة ميمي على مدى ثلاثة أشهر، وكنت أرغب في ضمّها إلى عائلتي إذا لم يظهر أيّ فرد من أهلها للمطالبة بها. ولكنّ مشيئة الله أرادتها أن تكون بجواره.

Scanned with CamScanner

الفصل الثامن عشر

18 كانون الأوّل (ديسمبر) 1917

ليحرسنا الله جميعًا في هذا اليوم..

بالأمس، شعرتْ الطفلة المسكينة فومين (Fommen) نوفل بإعياء شديد، فتمّ نقلها إلى بيروت يوم الأحد بمعيّة الدكتور أوترجي (Utergeh) الذي عاد الليلة الماضية، قبل أن يتوجّه مجدّدًا إلى بيروت في الصباح. نحن نحبّه كثيرًا، فهو في غاية اللطف.

بالأمس أيضًا، توجّه أكثر من مئة وثلاثين رجلًا وامرأة من أجل إحضار القمح من مكان بعيد، ومن غير المتوقّع أن يعودوا قبل منتصف الليل بسبب عدم وجود أحصنة وعربات نقل. فليساعدهم الله.

السبت 23 كانون الأوّل (ديسمبر) 1917

حضر الدكتور دراي وزوجته البارحة مع عدد من الأصدقاء من أجل الاحتفال بعيد الميلاد.

وفي حوالي الساعة الثالثة، تجمّع الأطفال في مدرسة البنات، وكان من الرائع مشاهدتهم بثيابهم ومعاطفهم وأحذيتهم الجديدة التي أحضرتْها لهم السيّدة دراي، خصوصًا عندما وقفوا أمام شجرة الميلاد المزيّنة بالألعاب والأضواء. وبعد ذلك بدأنا بإشعال الشموع، فبدا المكان خلّابًا.

Scanned with CamScanner

لقد شعر الأطفال بالكثير من البهجة، سيّما وأنّ معظمهم لم يحدث أن رأى شجرة الميلاد من قبل، الأمر الذي يعني أنّهم سوف يتذكّرون هذا المشهد طيلة حياتهم.

كلّ الشكر للآنسة لارد وللمعلّمات على الجهد الذي بذلوه في تدريب الأطفال على الأناشيد التي ردّدوها خلال الاحتفال، فقد تصرّف الجميع بطريقة لائقة. وقبل الوصول إلى النهاية، قام الدكتور دراي مع عدد من السيّدات بتوزيع الهدايا على كلّ طفل. ليحفظهم الله جميعًا ويكافئهم على هذه الأعمال النبيلة.

رأس السنة 1917 - 1918

إنّه يوم ممطر أمضينا خلاله أوقاتًا هادئة. وخلال فترة بعد الظهر، تلقّيت دعوة للذهاب إلى المتن، ولكنّني شعرتُ بعدم القدرة على الذهاب نظرًا لأنّني كنت مريضة في الفراش على مدى اليومين الماضيين. بعد ذلك أرسلوا بطلبي مجدّدًا، فنهضتُ وذهبتُ إلى المتن سيرًا على الأقدام، وعندما وصلتُ، شعر الجميع بالفرح، وناداني الأطفال باسمي مرحّبين بي، كما أهدتني الستّ ماريان معطفًا وشالَين من الصوف وتمنّت لي ميلادًا مجيدًا وسنة سعيدة، وكنت في غاية السعادة.

قبل ذلك، وبينما كنت في طريقي إلى المتن، التقيتُ بالصدفة مع السيّد فريد غريهام والدكتور دراي. وقد أعطاني الدكتور دراي مئة ليرة في بادرة لم أكن أتوقّعها بأيّ شكل من الأشكال، وخصوصًا بعد كلّ الأعمال الخيّرة التي قام بها من أجلنا. إنّه إنسان عصاميّ بحقّ، ومهما شكرتُه، فإنّ الكلمات تبقى عاجزة عن أن تفيه حقّه. ففي ذلك اليوم، أنفق الدكتور دراي أكثر من ألف ليرة على العاملين والممرّضات. ليحفظه الله.

Scanned with CamScanner

الأربعاء

الدكتور فيرجين مريض اليوم، وأنا في حال تزداد سوءًا. وقد أبلغتني الآنسة مسّاه (Massah) بأنّه ينبغي عليّ الذهاب إلى المستشفى. الشكر لله. فالمستشفى هو المكان الأفضل الذي يمكننا الذهاب إليه عندما نشعر بالمرض، والممرّضات هناك في غاية اللطف.

اليوم الأوّل في السنة

حال الدكتور فيرجين تتحسّن، والشكر لله على المعاملة الجيّدة التي ألقاها من قِبل الممرّضات في المستشفى.

16 كانون الثاني (يناير) 1918

زارنا اليوم الدكتور دراي وأبلغني أنّه ينبغي عليّ البقاء في السرير لمدّة أسبوعين إضافيّين. إنّه في غاية اللطف. وقد تساءلتُ في قرارة نفسي: «ألم يملّوا منّي بعد، فأنا غالبًا ما أكون مريضة»؟

31 كانون الثاني (يناير)

أبلغني الدكتور أوترجي (Utergeh) أنّ بإمكاني العودة إلى المنزل اليوم. كم كنت أشعر بالسعادة هنا مع الستّ ليمان أسود، الآنسة راشيل، وجميع الممرّضات. لقد شعرتُ بالحزن لمغادرة هذا المكان، ولكن مهما يكن من أمر، فأنا عائدة إلى أولادي الأعزّاء وكلّ الأطفال المحبّبين إلى قلبي.

29 شباط (فبراير)

عيناي ملتهبتان لدرجة أنّ الطبيب أبلغني بأنّه ينبغي عليّ الذهاب للإقامة بمفردي. وهكذا ذهبتُ للسكن في الغرفة التي خصّصناها في

البداية لسكن الأطفال، حيث علّمتهم طقوس الصلاة وقراءة التراتيل. وقد أخذتُ ألبرت معي.

13 آذار (مارس)

حضر الدكتور دراي لرؤيتنا اليوم. كما أنّ الموفد الألمانيّ كان في القرية أيضًا.

23 آذار (مارس)

أبلغني الطبيب بأنّ حال عينيّ أصبحت أفضل. الشكر لله. الأسبوع المقبل سنحتفل بعيد الفصح. وقد سمعتُ أخبارًا مفادها أنّ الحرب ستنتهي قريبًا. أمّا سعر رطل الطحين، فقد وصل إلى جنيهين.. وليكن الله في عون الفقراء.

25 آذار (مارس)

السيّد والسيّدة مارش حضرا اليوم لتمضية أسبوع عيد الفصح مع بناتهم.

29 آذار (مارس)

السيّد والسيّدة فريد غريهام غادرا اليوم، بينما احتشد جميع الأطفال لكي يلقوا عليهما تحيّة الوداع. وقد قدّمتْ لهما الطفلة غريس من الشوير باقة ورد.. ليحفظهما الله مع ابنهما الصغير، فقد كنّا نشعر بالأسى لفراقهما.

اليوم يصادف الجمعة العظيمة، فذهبتُ إلى الكنيسة المارونيّة[5] التي اتّشحت بالحزن في هذه الذكرى، حيث تمّت إضاءة الشموع، وراح الكاهن ينشد التراتيل مع جوقة من الرجال والأطفال بأنغام وأصوات رائعة. لقد

Scanned with CamScanner

كانت كنيسة جميلة من حيث الطراز المعماريّ، ولكنّ بناءها لم يكن قد اكتمل بعد بسبب بداية الحرب. فلتحفظنا يا الله حتّى نتمكّن من إنهاء بناء هذه الكنيسة.

السبت 30 آذار (مارس) 1918

أخبار تعيسة اليوم، فسعر الطحين يواصل الارتفاع بجنون، والكثيرون يموتون جوعًا في بيروت، والكثيرون سوف يموتون للسبب نفسه هنا في برمانا وفي مختلف قرى الجبل. ليحفظ الله الأطفال، وليسامح الذين ذهبوا إليه على خطاياهم. لماذا اندلعت هذه الحرب يا ترى؟ ألم نكن سعداء قبل اندلاعها؟ ألم يكن لدى كلّ أمّة ما يكفيها لكي تعيش برخاء؟

لقد صَدَقَت الملكة فيكتوريا حقًّا عندما قالت: "السلام... مهما كانت تكلفته."

4 نيسان (أبريل)

إنّه يوم الملاعب في المتن. فقد حضر الدكتور دراي مع عدد من الأولاد وطلّاب كلّيّة بيروت إلى ملعب مدرسة البنين للمشاركة في أوّل نشاط رياضيّ من نوعه منذ أربع سنوات، فتمنّيتُ أن تشكّل هذه المناسبة مؤشّرًا للمزيد من بشائر الخير في المستقبل. الليلة الماضية، رأت إحدى صديقاتي حلمًا بأنّ طبيبًا جاء إليها وطلب منها أن تقرأ في إنجيل متى، وأعطاها مفتاح مستشفى المتن ورغيفًا ساخنًا من الخبز.

السبت 6 نيسان (أبريل)

ذهبتُ إلى الشوير في رحلة استغرقت ستّ ساعات ونصف الساعة سيرًا على الأقدام في جبل لبنان الجميل. كان الطقس رائعًا في شهر نيسان ولم

Scanned with CamScanner

أشعر بالحرارة. وقد قال لي الدكتور أوترجي (Utergeh) إنّه لو كانت لديه ساقين طويلتين مثلي لكان قد تمكّن من قطع المسافة نفسها خلال ساعة ونصف الساعة فقط، ولكنّ المدّة الزمنيّة التي استغرَقّها في طريق العودة بلغت أكثر من ساعتين.

كان الجميع بخير في الشوير. وقد أمضيتُ وقتًا جميلًا مع السيّدتين حاوي وكارسلو اللتين عبّرتا عن سعادتهما لرؤيتي. ولكنّ اللافت في هذه الزيارة هو أنّني سمعتُ همسًا مفاده أنّ قوّاتنا أصبحت على بُعد خمس ساعات فقط عن حوران، الأمر الذي أعطانا الكثير من الأمل، على الرغم من أنّ آمالنا كانت قد خابت في مناسبات عدّة في السابق، ولكن علينا أن نؤمن، فالله يمكنه فعل كلّ شيء.

ابنة السيّدة حاوي، سيدار، ذهبت إلى غاسيلي (Gacelly) وقالت لنا إنّها رأت على طول الطريق الهياكل العظميّة للناس الذين قضوا جوعًا أو تعرّضوا للنهب والقتل. يا إلهي كم إنّ هذا الزمن صعب.. فهل يمكن لمن سيبقون على قيد الحياة بعد الحرب أن ينسوه؟

أحد أصدقائي ذهب بدوره إلى بيروت، وقال إنّه وجد على جانب الطريق جثّة رجل قضى جوعًا، وقد حاولت شقيقته المسكينة دفنه، ولكنّها كانت خائرة القوى فلم تتمكّن من حفر القبر، فإذا بالثعالب تنهش لحمه ولا تُبقي منه سوى العظام.

الكثير من الصور المأساويّة المشابهة كانت تحدث هنا بشكل يوميّ.. وكنّا نشاهدها بالعين المجرّدة.

16 نيسان (أبريل) 1918

كنّا نعاني من نقص هائل في الطعام ونتوقّع وصول الطحين في كلّ يوم. ولكنّ اللافت هو أنّنا عرفنا أنّ أسعار الأرزّ والمواد الأخرى أرخص بكثير

Scanned with CamScanner

من الطحين، الأمر الذي عكس في أجوائنا بارقة أمل بأنّ ما عانينا منه على مدى السنوات الأربع الماضية سوف ينتهي قريبًا.

هذه الأخبار الجيّدة المتواترة كانت أجمل من أن تكون حقيقيّة. وقد قيل لنا أن كلّ شيء سوف ينتهي في غضون شهر واحد. الشكر لله.. فهذه الحرب كانت بمثابة درس لنا جميعًا. أنا لا أعتقد على الإطلاق بأنّ أيّ شخص عايش هذه الحرب سوف يفرّط بأيّ كسرة خبز في المستقبل. لقد أصبح طفلي الصغير في الرابعة من عمره الآن وهو لا يعرف حتّى هذه اللحظة مذاق الحلوى والبسكويت والسكّر.

سأخبركم الآن عن الوجبة التي تناولناها هذا المساء.. لقد كانت مجرّد باقة من الهندباء، قمنا بغليها بالماء الساخن، ثمّ أضفنا إليها بعض البصل، ثمّ غليناها مجدّدًا لتستوي، ولنأكلها مع بعض الخبز.. إنّها حتمًا وجبة لذيذة في هذا الزمن الصعب، وغالبيّة الفقراء يأكلونها يوميًّا من دون ملح، نظرًا لأنّ أسعار الملح مرتفعة جدًّا.

على هذا الأساس، من الواجب علينا ألا ننسى هذا الزمن الصعب على الإطلاق عندما نصل، بمشيئة الله، إلى الزمن الأفضل.

الرغيفان الكاملان

لقد أراد الله لنا أن نتعلّم الكثير من الأشياء في النهاية. فقبل عدّة أسابيع، أردتُ الذهاب إلى الشوير، فكتبتُ إلى الآنسة لارد للحصول على إذن منها للمغادرة برفقة ابني هاري، ولكنّها لم تُجِب على رسالتي. وبعد عشرة أيّام، حصلتُ على الإذن من الدكتور أوترجي (Utergeh) والسيّدة قرطاس نظرًا لأنّني كنت أعاني من التهابات في عينيّ. وقبل المغادرة، ذهبتُ للحصول على الرغيفين المخصّصين لي مع كلّ وجبة، وكذلك على الرغيف المخصّص لابني هاري. ولدى مروري أمام المستشفى، التقيتُ

Scanned with CamScanner

بالدكتور قرطاس وزوجته، فسألتني الزوجة عمّا إذا كنت قد حصلتُ على إذن بخصوص مغادرة ابني من الآنسة لارد؟ فأجبتُها بأنّني كتبت إلى الآنسة لارد قبل عشرة أيّام ولكنّها لم تُجِب على رسالتي. فطلبتْ منّي السيّدة قرطاس أن أذهب لكي أسأل الآنسة لارد مجدّدًا، وعندما فعلتُ، رفضتْ إعطائي الإذن، وقالت لي إنّ أيّ طفل يمضي الوقت في الخارج يجب أن يُعاقَب.

لقد كانت المشكلة تكمن في تراتبيّة المسؤوليّات في العمل. وهكذا أعدتُ الخبز الذي حصلتُ عليه للأيام الثلاثة المقبلة إلى ابن السيّدة قرطاس، وأُدخِلتُ إلى المستشفى لمعالجة الالتهابات في عينيّ.

بعد مرور أسبوع، لاحظتُ أن جسم هاري يبدو نحيلًا جدًّا، وطلبتُ من الدكتور والسيّدة قرطاس أن يسمحا له بالبقاء معي لكي أتمكّن من الاعتناء به، ولكنّهما قالا إنّه يتوجّب الحصول على إذن بذلك من الآنسة لارد التي رفضت من جهتها إعطاء هذا الإذن حتّى لمجرّد يومين، الأمر الذي دفعني إلى المواظبة على الصلاة إلى أن دخل السلام إلى قلبي. والشكر لله.

Scanned with CamScanner

الفصل التاسع عشر

27 نيسان (أبريل) 1918

يوم الحقول الكبير

اليوم هو يوم الحقول الكبير. الزوّار جاؤوا من أماكن مختلفة من البلاد بما فيها بيروت، حيث نظّموا حفلات راقصة ووزّعوا الجوائز على الأطفال. غلاديس ربحت جائزتين كانتا عبارة عن وشاحين أزرقين، كما نال هاري الجائزة الأولى عن صفّه، وكانت عبارة عن كتاب باللغة الإنجليزيّة.

خلال فترة بعد الظهر، بدأتْ النشاطات الرياضيّة وفاز فيها أبناء المتن، الأمر الذي جعل الدكتور دراي يشعر بسعادة بالغة، قبل أن ترتفع نسبة سعادتنا جميعًا مع وصول ثلاث درّاجات محمّلة بالقمح. وكان ذلك مسك الختام. الشكر لله.

الأربعاء

إحدى النساء الفقيرات التي درجت العادة على أن أقدّم لها جزءًا من حصّتي من الخبز والحساء كانت هنا اليوم. أعطيتُها ما كان في وسعي تقديمه، فانحنت على الأرض وقبّلتها وشكرت الله.

يا إلهي كم بلغ حجم معاناة هؤلاء الفقراء خلال هذه الحرب. لقد وصل الأمر معهم إلى حدّ لملمة عظام الأرانب من الطرقات من أجل أكلها.

Scanned with CamScanner

كانوا يأكلون أيضًا قشور البرتقال وقشور البطاطا. فكيف لهم أن يقاوموا الحمّى عندما تصيبهم طالما أنّهم يتناولون مثل هذا الطعام؟

6 حزيران (يونيو) 1918

منذ التاسع والعشرين من نيسان (أبريل) الماضي، أي قبل نحو ستّة أسابيع، لم أتمكّن من الكتابة نظرًا لأنّه لم يكن لديّ أوراق أكتب عليها. ولهذا السبب، ينبغي عليّ الرجوع قليلًا إلى الوراء.

كان هاري بمعيّتي منذ حوالي خمسة أسابيع. وفي صباح أحد الأيّام، ذهبتُ لمقابلة الآنسة لارد من أجل الاطمئنان عليها. سألتُها: «لماذا تصرّين دائمًا على رفض أيّ طلب أتقدّم به إليك. لقد طلبتُ منك السماح لابني هاري بالبقاء معي لأنّه ليس بصحّة جيّدة»... فقاطعتني سائلة بتهكّم: «وشو وضعو؟»[6] قبل أن تسمح له بالبقاء.

الشكر لله... الأمور تتّجه نحو التحسّن، وأشعّة الشمس تعكس فينا المزيد من الدفء.

في الثالث من حزيران (يونيو) جاءت بيرل برفقة جاك من بيروت، وسوف تشارك في دورة تمريض في المستشفى بعد أن كان الدكتور دراي قد وافق مشكورًا على ذلك. لقد وصلا في ساعات المساء، وكانا منهكَين للغاية. ونظرًا لأنّني كنت أعلم مسبقًا بموعد وصولهما، فقد أعددتُ لهما عشاءً خاصًّا.

في التاسع والعشرين من الشهر الحالي، سوف تبلغ بيرل السابعة عشرة من العمر، كما كنت أشعر بالسعادة لأنّ جاك أصبح رجلًا في الثامنة عشرة من العمر.

فليحفظ الله أولادنا وأحبابنا الأعزّاء.

Scanned with CamScanner

11 حزيران (يونيو)

ذهبتْ غلاديس إلى بيروت لرؤية الياس وعادت مرهقة في اليوم التالي. كلّ شيء يسير على ما يرام. الياس سوف يأتي لزيارتنا في نهاية هذا الشهر، وأنا أمضيتُ اليوم أوقاتًا سعيدة، وكان الأطفال يلعبون داخل قفص الدجاج.

16 حزيران (يونيو)

جرجي هو طفل صغير كان يعيش تحت الرعاية في مستشفى السيّدة دايل منذ أن هجرته أمّه قبل فترة من الزمن، وكان له أخ على قيد الحياة وأخت متوفّية، بالأمس حضرتْ إحدى النساء وقالت إنّها أمّه، ولكنّه لم يتعرّف عليها، وبدأ بالبكاء. لقد كان يناديني «ماما» إلى أن ذهب في نهاية المطاف برفقة أمّه الحقيقيّة.. فليحفظ الله كلّ الأطفال.

18 حزيران (يونيو)

أخذ الدكتور دراي على عاتقه مهمّة الإشراف على ثانويّة البنات، واليوم سوف تذهب هيلين وغلاديس إلى هناك، فما كان منّي إلّا أن تمنّيت لهما السعادة، على الرغم من أنّني سوف أشتاق إليهما كثيرًا.

19 حزيران (يونيو)

لا يوجد لدينا ما يكفي من القمح من أجل إعداد الخبز، ولكنّ الله لن ينسانا. فقد دخل ألبرت ليخبرني بفرح أنّه رأى للتوّ درّاجة تفرغ حمولتها من القمح.

حدث ذلك عند الساعة الرابعة بعد الظهر. الشكر لله.

Scanned with CamScanner

21 حزيران (يونيو)

ذهبتْ بيرل إلى منزل الممرّضات الجديد، فتمنّيت أن يكون الجميع بخير وأمان هناك.

29 حزيران (يونيو)

اليوم عيد ميلاد بيرل، ولم يكن لديّ ما أقدّمه لها سوى رغيف من الخبز. آه يا ابنتي الحبيبة كم كنتِ جميلة عندما تمنّيتِ اليوم أن تكون السنة المقبلة أفضل لنا جميعًا. هيلين تعاني من السعال الحادّ وتمّ نقلها إلى المستشفى. والسيّدة لبدة حضرت اليوم لتبدأ مهمّة الإشراف على الأطفال.

10 تمّوز (يوليو)

بيرل، ياسارا، ولبدة أُدخلن اليوم إلى المستشفى بسبب إصابتهنّ بالسعال الحادّ.

12 تمّوز (يوليو)

اليوم عيد ميلاد هاري. لقد أصبح في الثانية عشرة من العمر، وكان قد عاد إلى المدرسة بعد أن أمضى معي نحو شهرين. ليحفظ الله كلّ الأولاد.

1 آب (أغسطس) 1918

مرّ وقت طويل على آخر مرّة كتبت فيها. فقد واجهنا الكثير من المصاعب، وخصوصًا بعد أن أُصيب معظم الأطفال بنوبات السعال الحادّ. الابنة الجميلة للسيّدة قرطاس (وديعة) التي تبلغ من العمر عامًا وثلاثة أشهر توفّيت هذا الصباح. وقد سارت جموع غفيرة في جنازتها، وراح الجميع يرتّلون: «احفظها بين ذراعيك أيّها المسيح.» يا إلهي كم كانت تلك

Scanned with CamScanner

الأوقات صعبة وحزينة. أولادي هاري وألبرت وهيلين يعانون بدورهم من السعال الحادّ، ولا يمكنني الذهاب إليهم. فاحفظهم يا الله.

10 آب (أغسطس)

وصلتني رسالة من جاك أبلغني فيها أنّه بخير. بيرل بدورها تواصل التقدّم في مجال التمريض، والجميع يحبّونها. غلاديس أيضًا مرتاحة مع الناس الذين تعمل لديهم، وقد أعطتها السيّدة غولدفينش ثلاثة أرباع الجنيه، فأعطت غلاديس جزءًا من هذا المبلغ لشقيقتها بيرل.

الدكتور دراي من جهته أحضر بعض الأدوية لمعالجة الالتهابات في العيون، أمّا الدكتور أبريان، فقد أخبرني بأنّه أصبح بإمكاننا إرسال الرسائل إلى الديار. وكان هذا خبر سعيد حقًّا.

الجمعة 16 آب (أغسطس) 1918

حلمتُ الليلة الماضية بأنّ ملاكًا هبط عليّ من السماء ووضع ذراعه حول عنقي. وعندما أخبرتُ الأصدقاء عن هذا الحلم، قالوا لي إنّه حلم سيّء. لكنّني لم أكترث، فقد كان من الرائع أن نرى الملائكة في أحلامنا.

السبت 17 آب (أغسطس)

ذهبتُ إلى المستشفى لرؤية أحد أطفالنا الذين يتعالجون هناك. وللأسف، فقد كان ينازع.

الأحد 18 آب (أغسطس)

الطفل الذي زرته البارحة في المستشفى توفّي اليوم، الأمر الذي فسّر حلم الملاك الذي رأيتُه أوّل من أمس. المسيح يحبّ الأطفال الصغار.

Scanned with CamScanner

في هذه الأثناء، وصلتني رسالة من جاك أبلغني فيها أنّه يرغب في ممارسة التجارة، ولكنّنا كنّا نخشى الإقدام على أيّ خطوة في هذه الظروف العصيبة التي يموت فيها الناس جوعًا.

لقد توفّيتْ اليوم تحت وطأة الجوع ابنة أحد الرجال الذين لم يتأخّروا يومًا في تقديم المساعدة لنا منذ وصولنا إلى هذه البلاد. إنّها كولفار داندير (Colefar Dandher). رحمها الله.

20 آب (أغسطس)

طفل آخر من أطفال المتن قضى اليوم أيضًا. خليل سعيد توفّي في المستشفى هذا الصباح.

26 آب (أغسطس)

اليوم عيد ميلاد ألبرت الذي أصبح يبلغ من العمر أربعة أعوام. لم أتمكّن من تجهيز قالب حلوى، ولكنّني أعددتُ طبقًا من الفتوش، وإليكم طريقة التحضير:

جمّعي ما لديك من كسرات الخبز وقطّعيها إلى أحجام صغيرة داخل الوعاء، ثمّ اسكبي فوقها بعض الماء لكي تصبح ليّنة، وقطّعي بعض البندورة والخيار وأيّ شيء متوفّر من الخضار والأعشاب مثل البقدونس والنعناع، ثمّ اخلطيها جيّدًا، وصبّي فوقها بعض الزيت.. إن توفّر.

كان طبقًا لذيذًا استمتع بأكله الجميع. وكلّ الشكر للسيّدة قرطاس العزيزة التي قدّمت لي كافة لوازم هذا الطبق من خضار. ليحفظها الله.

كانت بيرل تشعر بالتحسّن بعد إصابتها بالملاريا. أمّا جاك، فقد ذهب إلى بيروت وأخذ معه سلّة من العنب، ثمّ أرسل لي ليبلغني بأنّه سيعود يوم الأحد. ليحفظه الله.

Scanned with CamScanner

برمانا، 7 أيّار (مايو) 1918

«أعزّائي الدكتور دراي، الدكتور أوترجي (Utergeh)، السيّد والسيّدة قرطاس، الآنسة راشيل، الآنسة لامالا (Lamala)، الآنسة لارد، السيّد أبريان، والجميع...

أودّ أن أعبّر عن شكري الجزيل لاهتمامكم بنا جميعًا. لقد مرّ عام حتّى الآن على قدومي إلى برمانا مع سبعة أطفال. عندما أنظر إلى الوراء، لا يسعني سوى أن أرى كيف غمرنا الله برعايته جميعًا. خلال الليلة الأولى، نمنا في ملجأ، واليوم أصبح لديكم سبعة منازل للأطفال، ومشفَيَيْن، وما زلتم تقدّمون الرعاية لأكثر من أربعمئة طفل.

أودّ أن أشكر أيضًا البروفسور باتش على كرمه ولطفه مع أطفال الشوير.. فليحفظكم الله جميعًا، عسى أن يكون موعد السلام الذي نستحقّه جميعًا قد أصبح قريبًا.»

مع تقديري ومحبّتي،

ميريام بو صادر

10 أيلول (سبتمبر) 1918

شعرتُ يوم الأحد بالتهابات حادّة في عينيّ، فسارعتُ بالذهاب إلى المستشفى للحصول على سائل التقطير للعلاج. وعندما كشف عليّ الطبيب، قال لي إنّه سيحصل لي لاحقًا على إذن من الدكتور دراي للبقاء هنا وتلقّي العلاج، فعدتُ إلى المنزل، وكان جاك قد عاد لتوّه من بيروت لتمضية أسبوع معنا. وعلى الرغم من شعوري بالحزن لكوني لن أمضي معه الكثير من الوقت بسبب اضطراري للعودة إلى المستشفى، إلّا أنّني شعرتُ بالسعادة عندما أبلغني أنّ أداءه في الرسم يتطوّر، خصوصًا بعدما أراني لوحة رسمها للشيخ ناصيف اليازجي، أحد الشعراء العرب.

Scanned with CamScanner

يوم الاثنين، عانت بيرل من حمى دامت 3 أيام. صباح هذا اليوم، ظهرت بارجتان حربيتان وآلة طائرة فوق بيروت. وسمعنا الكثير من إطلاق النار فيما كانت الآلة الطائرة تحلّق فوق برمانا.

الأحد

توفيّ الطفل فيليب في المستشفى خلال الليلة الماضية، فخيّم علينا الحزن الشديد. فالمسكينة ييلفي (Yelphy) فقدت حتّى الآن اثنين من أشقّائها الصغار.

Scanned with CamScanner

الفصل العشرون

22 أيلول (سبتمبر)

السيّدة شيريدان (Sheridan) وصلتها رسالة من الآنسة كومنيتون. الشكر لله... الشكر لله. السيّد والسيّدة دراي غادرا اليوم إلى بيروت.. ليحفظهما الله.

الأحد

ذهبتُ اليوم إلى الكنيسة وكان من الرائع حقًّا أن أشاهد الأيقونات معلّقة على الجدران مجدّدًا. وقد أخبرني السيّد شيريدان (Sheridan) بأنّ الآنسة كومنيتون يُتوقّع أن تصل يوم الأحد المقبل، فشعرتُ بالسعادة لسماع هذا الخبر.

لا شكّ في أنّنا ما زلنا متعَبين.. فكلّ السلع ما زالت غالية جدًّا لدرجة يصعب تصديقها.

1 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1918

أخبار اليوم: لقد تمّ إحراق مستودع كبير يحتوي عل كمّيّات هائلة من الذرة، إضافة إلى عدد من المنازل. فليسامح الله الفاعلين على هذه الجريمة. لماذا لم يقدّموا هذه الكمّيّات إلى الناس الذين يتضوّرون جوعًا؟

Scanned with CamScanner

لقد أصبح من المألوف أن نرى الناس يبكون بألم من شدّة جوعهم، فماذا عن الأطفال يا ترى؟ هذه المشاهد كانت تتكرّر في مختلف أنحاء المتن.

لقد غادرتْ جميع الممرّضات ما عدا الآنسة نونون (Nonnon). ماذا سأفعل يا ترى إذا ما اقتضت الظروف أن أرحل أنا بدوري؟ بالنسبة إلى بيرل، فهي ستبقى حتّى نهاية الأسبوع لأنّها كانت تمارس عملها كممرّضة خلال ساعات الليل. وفي الواقع، لم أكن أعلم ماذا تعتزم أن تفعله، ولكنّني كنت مؤمنة بأنّ الله سيدلّها على الوجهة الصحيحة.

اليوم، حلّقت طائرتان في السماء.. فرجاءً يا الله أرسل لنا المساعدة. وسرعان ما سمعنا أخبارًا جيّدة مفادها أنّه تمّت السيطرة على دمشق، ما يعني أنّ الفيلق الإنجليزيّ[7] سيصل إلى هنا في الغد. الشكر لله.. الشكر لله.

لم يكن في وسعنا أن نعبّر عن فرحنا في العلن أو أن نتحدّث بصوت مرتفع أو حتّى أن نغنّي، ولكنّ الجميع كانوا يشعرون بالسعادة لأنّ السلام سوف يحلّ بعد مرور أربعة أعوام ونصف العام على بدء هذه الحرب.

خلال منتصف الليل، لم أتمكّن من النوم. فقد كنت أفكّر بفرح بالوقت الذي سأصبح فيه قادرة على استلام الرسائل البريديّة من أهلي وأشقّائي وشقيقاتي وأصدقائي الأعزّاء. لقد مرّ وقت طويل دون أن أسمع عنهم ومنهم أيّ شيء.

الشكر لله لأنّنا سوف نكون قادرين على الحصول على ما يكفينا من طعام نحن والأولاد. لدينا 46 طفلًا هنا الآن وهم لا يحصلون سوى على نصف رغيف كلّ وجبة. لقد أخبرتُهم بأنّ الحرب سوف تنتهي، وكان من بينهم فتى وصل إلى مرحلة من العمر تؤهّله لكي يفهم مغزى كلامي.

أسعار السلع بدأت بالهبوط بطبيعة الحال.. والشكر لله، فلن يكون هناك المزيد من الضحايا ليموتوا جوعًا مثلما حدث في السابق.

Scanned with CamScanner

2 تشرين الأوّل (أكتوبر)

الجميع كانوا هادئين اليوم بعد البهجة التي عبّروا عنها بالأمس. لقد قُرعت الأجراس على مدى ساعات الليل وبقيت تُقرع لغاية اليوم. ومن المتوقّع أن نتمكّن من رؤية السفن القادمة خلال فترة بعد الظهر. جميع الأنظار ستتوجّه صوب الميناء بكلّ تأكيد.

في المساء، أُنيرت المنازل للمرّة الأولى منذ أكثر من أربع سنوات. وقد نقلت الأخبار أنّ هناك 23 جنديًّا إنجليزيًّا موجودون حاليًّا في بيروت. ولو كانت تتوفّر لديّ أوراق في تلك الساعة لكنتُ قد سارعتُ في كتابة رسالة إلى أمّي وأبي اللذين أتمنّى أنّهما لا يزالان على قيد الحياة.

الأطفال لا يزالون يحصلون على نصف رغيف كلّ وجبة، ولكنّني أتوقّع أنّنا سوف نحصل على الكثير من الطحين في القريب العاجل.

3 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1918

الشكر لله.. فقد وصلتنا اليوم أخبار سارّة مفادها أنّ السيّدة دراي أنجبت طفلًا. ليحفظهم الله، فهم يستحقّون كلّ خير، ولولاهم ولولا مساعدتهم لنا لكنّا في عداد الأموات. لقد كانوا يُطعمون أكثر من 400 طفل وعامل يوميًّا.. ليباركهم الله.

الأحد

رأينا سفينتين اليوم قرب بيروت، ولكنّهما سرعان ما اختفيتا عن الأنظار. كان البعض يقولون إنّ الإنجليز متواجدون في بيروت، والبعض الآخر كان يقول العكس، ولم نكن نعرف الحقيقة، كما أنّني لم أكن قادرة على الكتابة بسبب إصابتي مجدّدًا بالتهابات في العينين. أمّا الأخبار الجيّدة، فقد حصلنا اليوم على رغيفين كاملين مع بعض البطاطا.

Scanned with CamScanner

10 تشرين الأوّل (أكتوبر)

أوقات سعيدة

الإنجليز موجودون في بيروت وفي برمانا أيضًا، وقد تحدّثتُ بنفسي مع أحدهم. لقد واجهوا أوقاتًا صعبة في طريق الوصول، حيث كان ينبغي عليهم بناء شبكات للسكك الحديديّة في الصحراء. اقترب منّي أحد الجنود وقدّم لي بعض الشاي والسكّر والبسكويت والملح، فاستمتعنا جميعًا بأكلها، سيّما وأنّه من الرائع حقًّا أن يتناول المرء الشاي بالسكّر مع البسكويت. وقد وعدوني بإعطائي بعض الأوراق لاحقًا.

كلّ شيء أصبح أرخص بكثير قياسًا بما كانت عليه الأسعار من قبل. ويا إلهي، لك الشكر على كلّ شيء، وما مررنا به من مصاعب لن ننساه على الإطلاق. كتبتُ رسائل إلى أمّي وإلى الآنسة كومنيتون، وتمنّيتُ لو أنّني سأستلم الجواب منهما بحلول عيد الميلاد.

لقد أخبرني أحد الجنود أنّهم لم يقوموا بتدمير القدس ودمشق، فشعرتُ بالسعادة لأنّني كنت قد سمعتُ أنّ هاتين المدينتين جميلتان.

سألتُ الجنود عن أخي، ولكنّ أحدًا منهم لم يكن يعرفه. وقد قالوا لي إنّ الجنود النيوزيلنديّين لا يزالون في دمشق وسوف يصلون قريبًا، فتمنّيتُ أن أجد بينهم أيّ شخص أعرفه.

غلاديس ذهبت إلى بيروت. لقد اشتقت إليها كثيرًا، ولكنّني متأكّدة من أنّها تمضي أوقاتًا سعيدة. المزيد من السفن تصل إلى بيروت... ويا إلهي كم أنّ قلوبنا فرحة في هذا اليوم.

12 تشرين الأوّل (أكتوبر)

وصلتْ أعداد كبيرة من الجنود الهنود على شاكلة جحافل فقيرة. كانوا يعانون من العطش الشديد، فقدّمت لهم جرّة من ماء الشرب.

Scanned with CamScanner

خاتمة

بعد مرور أسابيع قليلة على قيامها بتدوين آخر ملاحظة في يوميّاتها، توفّيت ميريام بو صادر جرّاء إصابتها بالحمّى الإسبانيّة. ووفقًا لابنها ألبرت، فقد حدث ذلك يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1918، حيث تمّ دفن جثمانها في «مقابر الأصدقاء» في برمانا، وكانت تبلغ من العمر يوم وفاتها 56 عامًا.

Scanned with CamScanner

حواشي

1- (ص 48) عملة تركية معدنية.

2- (ص 51) عملة تركية معدنية.

3- (ص 53) عملة تركية معدنية.

4- (ص 87) هكذا ورد في يومياتها.

5- (ص 140) وردت في النص الأصلي Morimole.

6- (ص 146) وردت هكذا بالنص الإنكليزي ولكن بالحرف اللاتيني.

7- (ص 154) جاء في النص الإنكليزي الحرفان EL.

Scanned with CamScanner

«يا إلهي كم إنّ هذا الزمن صعب... فهل يمكن لمن سيبقون على قيد الحياة بعد الحرب أن ينسوه؟

أحد أصدقائي ذهب بدوره إلى بيروت، وقال إنّه وجد على جانب الطريق جثّة رجل قضى جوعًا، وقد حاولت شقيقته المسكينة دفنه، ولكنّها كانت خائرة القوى فلم تتمكّن من حفر القبر، فإذا بالثعالب تنهش لحمه ولا تُبقي منه سوى العظام.

الكثير من الصور المأساويّة المشابهة كانت تحدث هنا بشكل يوميّ... وكنّا نشاهدها بالعين المجرّدة.»

ميريام بيز بو صادر

السبت 6 نيسان 1918

هذا الكتاب هو قصّة امرأة إنجليزيّة كتبت مذكّراتها في لبنان قبل المجاعة الكبرى في الحرب العالميّة الأولى وأثناءها، وتعمّقت في سرد تفاصيل الأنشطة اليوميّة والأسريّة والعلاقات في المجتمع، فإذا بها تقدّم وصفًا دقيقًا لما بذله اللبنانيّون من جهود جبّارة للبقاء على قيد الحياة في مواجهة المجاعة والأوبئة والأمراض التي فتكت بهم، في فترة من الزمن لم تلقَ إلّا الاهتمام القليل.

الدكتور خاطر أبي حبيب

ISBN 978-614-451-031-5

9 786144 510315

صورة الغلاف من مجموعة إبراهيم نعوم كنعان الخاصة

تصميم الغلاف: جوني كارليتش

Scanned with CamScanner